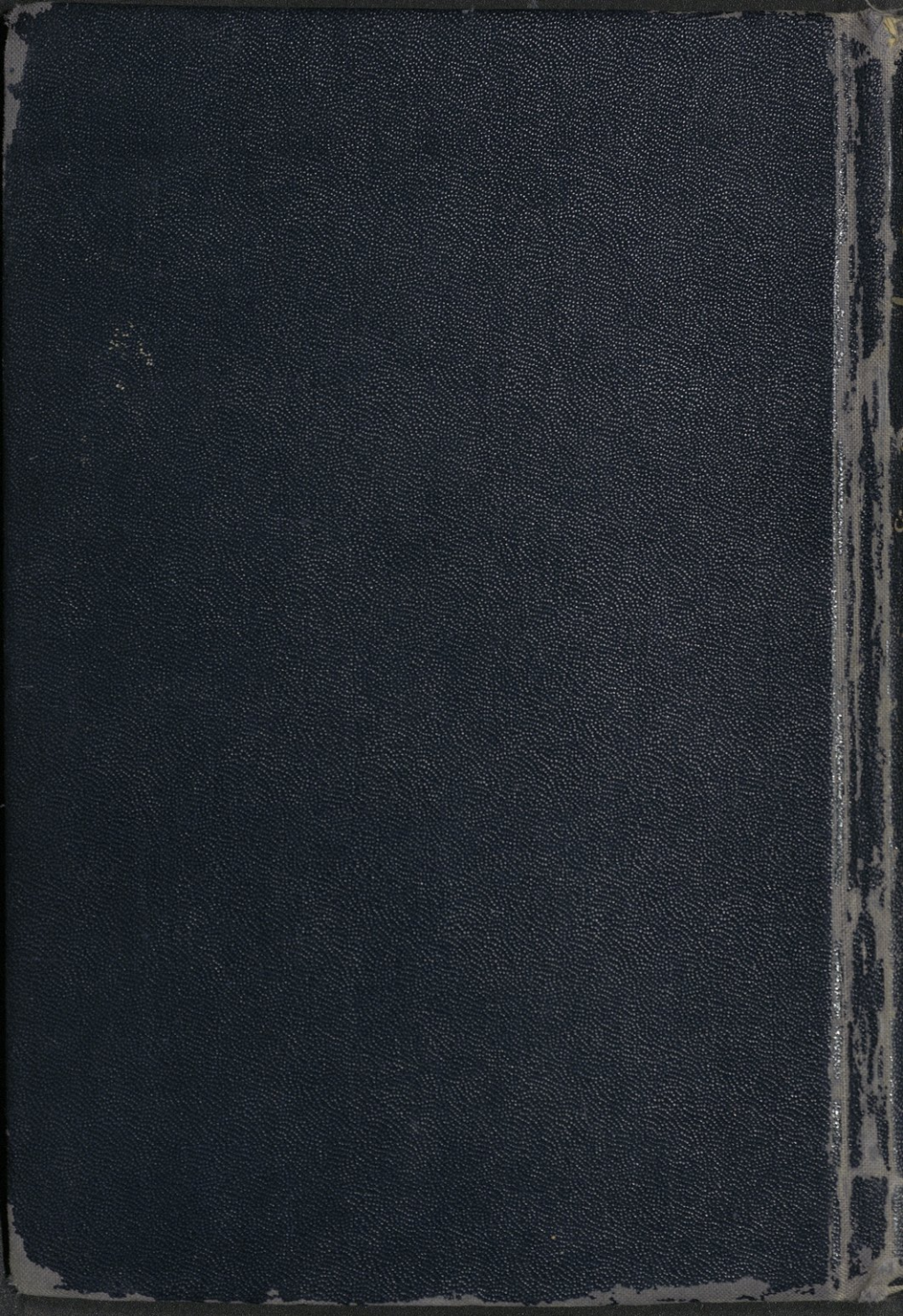




تجليد كتب
صالح الدين

[illegible]

1910
/ 29

1910
/ 29

17

رئيف خوري

323.4
K45hA
C.I.

حقوق الأنثى

من أين وإلى أين المصير؟

مع مقدمة بقلم الأستاذ

رجا حوراني

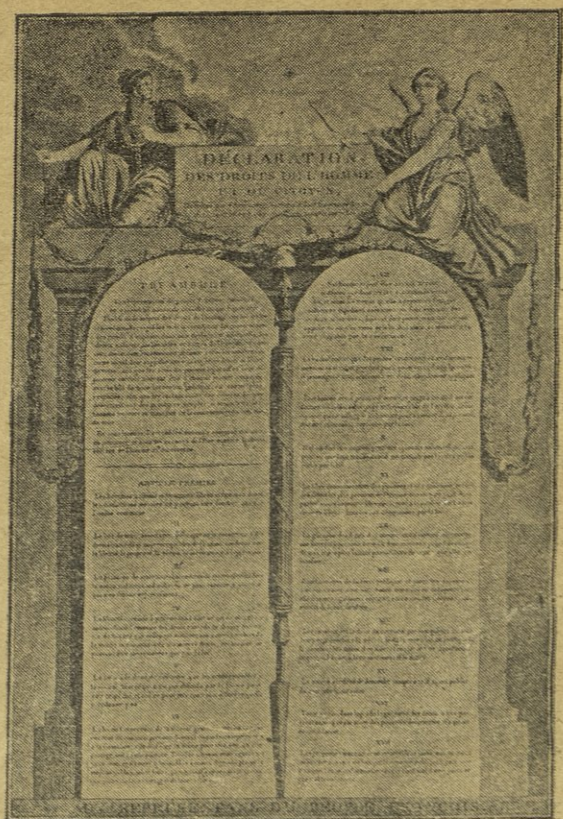
منشورات مجلة «الطليعة»

١٩٣٧

58155



— الحقوق — محفوظه —



✽ إعلان حقوق الإنسان ✽

في الصورة لوحة مكتوب عليها « إعلان حقوق الإنسان والمواطن التي قررتها الجمعية الوطنية في ٢٠ و ٢١ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٦ آب سنة ١٧٨٩ وصدقها الملك ». وعلى يمين اللوحة فرنسا وقد نقطعت أعلاها ، وعلى اليسار صورة رمزية تمثل القانون مشيراً بإصبعه إلى حقوق الإنسان وبصولجانه إلى عين العقل الرفيعة « التي طاعت تبدد سحب الجهالة »

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً؟^(١)
(عمر بن الخطاب)

لقد ولد الرأي العام يوم أوجد غوثنبرغ - الملقب بصانع
العالم الجديد - عن طريق الطباعة ، تلك الصلة التي لا نهاية لها
بين الأفكار والاذهان البشرية . وقوة الرأي هذه ، التي
لا نكاد ندركها ، ليست تحتاج في بسط سلطانها الى سمة
الانتقام أو سيف العدالة أو آلة الاعدام . لان في يدها ميزان
الأفكار والمؤسسات والذهن البشري . ففي إحدى كفتي
ميزانها ستعيش طويلاً خرافات العقل الانساني ، والاهواء التي

(١) كان من حديث هذه الكلمة : ان ابناً لعمر بن العاص - والي
مصر - سابق بفرسه رجلاً مصرياً من عامة الشعب ، فسبقه الرجل .
فنزل اليه ابن عمرو بن العاص ، وجعل يضربه بالسوط ،
ويقول : « انا ابن الاكرومين ! » . فهرب الرجل حتى أتى الخليفة عمر بن
الخطاب ورفع اليه شكاواه . فبث عمر الى عمرو يأمره أن يحضر الحج
المقبل هو وأولاده جميعاً . فلما جاء الموسم لبى عمرو أمر امير المؤمنين هو
وأولاده . فالتقى بهم عمر ومعه الرجل المصري . فسلم عمر سوطاً الى المصري
وقال له على مشهد من الخلق : تقدم فاضرب الذي ضربك . فتقدم الرجل
وجعل يضرب من ضربه من أبناء عمرو ، وعمرو مدهوش لا يفهم . عندها
قال له الخليفة ابن الخطاب كلمته الخالدة في التاريخ : متى استعبدتم الناس الخ .

تدعي لها الفوائد ، وحقوق الملوك المقدسة ، والتمايز في الحقوق
بين الطبقات ، وعداء الدول ، وروح الفتح الحربي ، واتحاد الدين
والحكومة اتحاداً فاسداً ، والرقابة على الافكار ، وإسكات
زعماء الشعب ، والعمل في الخط من كرامتهم ، وشيوع الجهل
بين سواد الامة ... أما في الكفة الاخرى فاننا سنضع أخف
ما خلقه الله وأقله مادة — النور !

(لامارتين)

ما زلنا لم نتعلم بعد ان نعتبط بالانسان كأجل وأعجب شيء
على كرتنا ، فاننا لن نستطيع تحرير أنفسنا مما في حياتنا من
فضاعة ونفاق . بهذه العقيدة جئت العالم ، وبهذه العقيدة سأتركه .
وعند تركي إياه سيبقى معي ايماني ان العالم مدرك يوم ما ان الانسان
هو أقدس شيء !

(مكسيم غوركي)



مقدمة الكتاب

بقلم الأستاذ رجا موراى

« لا يحق لأحد أن يظن خطأ أني أحلم بالسعادة بدون جهاد »
وبالخيرات بدون عمل . العمل هو الشرط الاساسى ليس لاجداد الخيرات
فحسب ، بل للحياة نفسها

اني أطلب شيئاً واحداً : وهوان لا يرهق اناس ليعيش آخرون
كالطفيليين ؟ وألا يبقى سيد ومسود . هل هذا تطرف ؟
هل يعترض ضعاف الايمان بقولهم « مستحيل » ! ثم يرددون ما قاله
غيرهم انه حلم جميل وسيدبقى حلماً جميلاً روحانياً في تاريخ الطوبيات !
وان الارض لن تثمر به ، وان الاقلية اثخمت وتنعم والاكثرية تكبد
وتعمل !

الاقلية تبذر والاكثرية تجوع !

الاقلية تسود والاكثرية تساد !

المنتجون هم الفقراء ، والكسالى هم أهل الثراء !

وان هذه الحال ستستمر الى الابد ؟

لا ! لا ! فهل حلم العالم عبثاً ؟ هل تشوق وتاق محبو الانسانية الى
سعادة غير ممكنة التحقيق ؟

هل الطموح للحزبية والمساواة والسعادة ، غرس في صميم قلوبنا عبثاً ؟ »

(ادوارد بللامي — من كتابه « المساواة »)

يَسْرُ « الطليعة » واسرتها عموماً أن تقدم هذا الكتاب النفيس هدية لمشتريها لعام ١٩٣٧ ، ويسرني بنوع خاص ان أضع المقدمة لهذا السفر الغالي الذي أتحننا به مؤلفه الاستاذ رثيف خوري .

لقد أحسن المؤلف اختيار الموضوع ، واختيار الزمن ، فالموضوع « حقوق الانسان » ليس مبتكراً ، وربما كان في قدمه كقدم شعور الانسان بحقوقه لأول مرة في التاريخ . على أن « حقوق الانسان » لم تتخذ شكلاً واضحاً إلا بعد قيام الثورة الفرنسية الكبرى واقرار هذه الحقوق في دستور يقع في سبع عشرة مادة كان لها أثر فعال في تطور الحركات الاجتماعية الحديثة في بلدان الغرب .

ولكي ندرك مزية المؤلف في حسن اختيار الزمن ، يجب ألا يغيب عنا - اليوم أكثر من أي وقت مضى - أنه من حق الكتاب والأدباء وقادة الشعب ومفكره ؛ بل من

أخصّ واجباتهم : أن يسيروا بأحرف من نار إلى حقوق الإنسان التي أصبحت مداسة وان يفتجوا الأبصار بكل الطرق الممكنة على القوى العاشمة في العالم التي تسلط ما عندها من وسائل البطش ، من حديد ونار ، وتفتك بالإنسان فتكاً كأنه بعوضة أو مخلوق لا قيمة له .

في أوائل القرن العشرين تناول هذا الموضوع الكاتب الاجتماعي المعروف فرح انطون في مجلته « الجامعة » وهالك بعض ما كتبه تحت العنوان التالي :

حقوق الإنسان لا يجوز أن يدوسها إنسان - ويجب

أن يبت المعلمون والاساتذة روحها في نفوس تلامذتهم :

« ... اذا نظرت الى الطبيعة وجدت النظام مستتباً في كل عنصر من عناصرها ورأيت كل شيء في موضعه منها . فالماء يجري سلسبيلاً والنسيم يهب بليلاً والارض تخرج أثماراً وبقولاً والحيوان يرفع فيها ناعم البال طرب الروح مهلاً تهليلاً .
« أما القلق والاضطراب والخلل والعذاب والظلم والوهم

والدناءة والفوضى فلمست تجدها إلا في الجمعية البشرية .
« هل نظرت في الطبيعة مخلوقاً يقعد وثلاثون أو أربعون مليوناً من جنسه تسعى لخدمته .

«هل نظرت فيها مخلوقاً دينياً جباناً طماعاً يولونه رئاسة لخدمة ابنائها، فيتخذ رئاسته ذريعة لاشباع بطنه وإرضاء طمعه واحتلاب رعيته دون أن يقوم بحق خدمته؟

«هل شاهدت فيها مخلوقاً يُطعم كلابه اللحم المسمن مع ان رفاقه يموتون جوعاً، او مخلوقاً بليداً جاهلاً في صدر الهيئة مع ان العقلاء والفضلاء في عتبته؟

«هل شاهدت فيها ان الذين يسرقون وينمون ويتسافهون ويخدعون، يغتنون وينجحون ويتنعمون خلافاً للذين يصدقون؟

«كلا! ان كل هذه الامور الشائنة لا تراها في الطبيعة، ولكنك تراها في الجمعية البشرية... فأعظم عمل يقوم به الشارعون وأُنفَعُ ما يخدمون به الهيئة البشرية الحاضرة إعادتها الى النظام (الذي يكفل حقوق الانسان) وهذا النظام معدوم الآن في العالم من سوء حظ العالم وإنما أصلح الممالك وأفضلها هي التي تكون أشد قرباً منه من باقي اخواتها» -

(«الجامعة» - السنة الثالثة ص ٢٥١٠) X

لقد مر ثلث قرن على ما كتبه المرحوم فرح انطون وهو لا يزال يصدق اليوم ولكن بصورة أفضع . فالقلق والفوضى والاضطراب والثورات وحروب الاكتمساح الجشعة ، والازمات

الخاتمة ، وتناقض المدنية ، كلها أمور ظاهرة تحمل الانسان
المفكر على التساؤل عن مصير البشرية . وعندما أقول
البشرية أقصدك أنت أيها القاري وأقصد نفسي والوفاء بل
ملايين غيرنا من أبناء هذا الوطن .

الى أين مصيرنا ؟ وما هو مستقبلنا ؟ وماذا ينبغي لنا هذا
العام والعام الذي يليه ؟ هل الافق متشع أمامنا أم هنالك غيوم
متلبدة تحجب عنا حتى معرفة المستقبل القريب ؟
عجباً ! أيدور في خلد أحد أن القوى الغاشمة تعمل اليوم
على هدم ما بنته البشرية وما أنتجته أدمغة العباقرة خلال
العصور ، وجر المدنية الى الوراء ؟؟

ولكن الاستاذ فرح انطون رغم بشاعة الصورة التي
رسمها فقد كان متفائلاً حيث يقول : « على ان العالم سائر اليه
(الى النظام الذي يكفل حقوق الانسان) من حسن الحظ سيراً
حتمياً وهذا معنى قولهم ان العالم يتدرج في مراقي الكمال
شيئاً فشيئاً » .

وهنا تظهر ميزة الكتاب الاولى . فالاستاذ المؤلف بعد
استعراض دقيق مستعجل لحقوق الانسان خلال العصور وتبيان
نضاله نضالاً قوياً ، وانتزاعه حقوقه انتزاعاً من أيدي السلطة

التي كانت تحاول بشتى الوسائل أن تضغط عليه وتدوس حقوقه ؛ بعد هذا العرض ، يطلع علينا الاستاذ المؤلف بالحقيقة الراهنة وهي ان ما كانت تحلم به الانسانية قد تم ، وان سدس الكرة الارضية اليوم ينعم بنظام اشتراكي يكفل حقوق الانسان بصورة كاملة لم يعرفها العالم من قبل .

قد يتساءل البعض : ولكن أنى لنا ان نعلم العلم اليقين عن بلاد الاشتراكية ، بلاد الاتحاد السوفياتي ، ونحن نقرأ اخباراً متناقضة عنها ، مما يحملنا على الشك فيما يجري في تلك البلاد : هذا حق ومنطق ! ونحن نقول أيضاً إنا نجعل أشياء كثيرة عن بلاد الاتحاد السوفياتي ولكن الاستاذ المؤلف في معالجته موضوعه أبان لنا بما لم يترك معه مجالاً للشك ان الانسان خلال العصور عاش مقيداً بسلاسل ثقيلة ، كان يخفّ ثقلها كلما ازداد تحسسه بحقوقه كإنسان ، إلى أن وصل بعد نضاله الطويل العنيف الى ما يكفل حقوقه ، وحقق النظام الاشتراكي الذي يجرم الاحتكار الرأسمالي الضخم وبذلك قضى على أعظم الشرور والفوضى الناجمة عن تضارب مصالح المؤسسات المالية الاحتكارية الضخمة ، والتي هي سبب الأزمات والاستعمار والحروب كما سيرى القاري في هذا الكتاب .

أما ما نسمعه من دعايات إيجابية أو سلبية فيما يتعلق بالاتحاد
السوفياتي فهذا لا يدخل في موضوعنا إذ نحن أمام مبادئ
وحقائق تاريخية وعلمية تزول الأشخاص ولا تزول .

فميزة الكتاب الثانية إذن هي أنه كتاب علمي استند مؤلفه
إلى حقائق تاريخية ومصادر أولية في جميع مقتبساته وفي كثير
منها استغنى عن ذكر المصدر بالكتاب والصفحة واكتفى بذكر أهم
المصادر الأولية الأفرنجية التي يمكن للباحث المستقري الرجوع
إليها إذا دعت الحاجة .

وميزته الثالثة أنه تحفة أدبية لقراء العربية ، لم يكتبه
الاستاذ خوري بقصد التسلية بل لتوجيه الأفكار بصورة عملية
إلى مشا كل هذا العصر الذي ازداد فيه تبلبل الأفكار وأصبح
الناس في حيرة وقلق وازدادت الأقاويل والمتناقضات في مصير
الديموقراطية وصلاحياتها للحكم ؛ وكثرت الدعايات الأجنبية
الفاشستية في البلاد العربية .

على أن المؤلف رغم نظراته البعيدة الشاملة إلى العالم وما يتمخض
به من حركات بركانية ، وفهم دقيق لتلك الحركات ونتائجها ، فهو
يضع - بالدرجة الأولى - نصب عينيه البلاد العربية ومصيرها ويشير
إلى أفضل الطرق الممكنة اتباعها كي تعيش هذه الاقطار العربية

عزيزة مستقلة موفورة الكرامة تدير شؤونها بنفسها .
 حقاً إنه لمن واجب المثقفين في بلادنا ، وأخصهم الأدباء
 الذين يحملون مسئولية كبرى تجاه وطنهم والتاريخ ، أن
 يضعوا نصب أعينهم مستقبل بلادهم ومصالحها ، لأنها مرتبطة
 بمستقبلهم ومصالحهم .

على الأدباء خصوصاً أن يسألوا ذواتهم هذا السؤال :
 أين نحن من « حقوق الإنسان » ؟ وفي أية مرحلة من
 مراحل « نضال الإنسان للحصول على حقوقه » يمكننا أن
 نضع شعبنا . أي حق يملكه الواحد منا ؟ لا أغالي إذا قلت
 إنه لا يزال بعيداً كل البعد عن ملك الحقوق الأولية
 البسيطة التي يتمتع بها غيرنا من الأمم الأخرى : فهو لا
 يملك حق الكلام بصراحة ، ولا حق الكتابة بصراحة ،
 ولا حق الخطابة ، ولا حق الدفاع عن نفسه إذا ما أُلقي
 القبض عليه - وفي بعض أجزاء بلادنا العزيزة يعامل العربي
 معاملة تنجل منها القرون الوسطى .

أين نحن من حقوق الإنسان ؟ وأي حرية نتمتع بها !
 بل أين هو حقنا الوطني كأفراد وكمجاعات في بلاد رأينا
 النور فيها لأول مرة ، وترعرعنا ونشأنا في أحضانها ،

وأحببناها ونطلب ونصرّ على التمتع بحقنا الوطني فيها !
 عليكم أيها الأدباء تقع مسئولية كبرى - مسئولية
 مجابهة الحقائق والدفاع عن الثقافة العربية الديموقراطية ، الدفاع
 عن الإنسان العربي الذي يعيش في بلادنا بلا حقوق - وبماذا
 يمتاز الإنسان إذا كانت هذه حالته .

بلادنا هذه عزيزة علينا - هي متأخرة ، أجل ! ونحن
 أول من يعترف بتأخرها ، ويجب أن نكون أول من يسعى
 الى إنهاضها ، ولولا أنها متأخرة لما كان من حاجة الى الأيدي
 العاملة لرفع مستواها .

علينا - على الأدباء خصوصاً - أن يكرسوا جهودهم
 لخدمة الشعوب العربية ودفعها الى الأمام ؛ وهذا لا يتم إلا
 بتكريس الأدب من قصة وشعر ورواية الى معالجة أدواء
 هذا الشعب ، ووصف الدواء ، لا الى وصف القمر في ليالي
 السمر ، والمشاحنات « الأدبية » التي لا فائدة منها .

بلادنا - وهي عزيزة علينا - تمر الآن في دور من أهم
 أدوارها التاريخية ، هو دور الانتقال من حياة العبودية الى
 حياة السيادة ، والأقطار العربية على درجات مختلفة في سلم
 الانتقال هذا ولكنها كلها تتوق الى حياة مستقلة تؤهل شعبها ،

صاحب التاريخ المجيد ، كي يأخذ مركزه مع باقي شعوب العالم
أصحاب السيادة في أوطانهم ، ويقوم بواجبه نحو نفسه ونحو
الإنسانية ..

في هذا الدور ، دور الانتقال ، يجب علينا - على الأحرار
خصوصاً - على الأساتذة وقادة الرأي والمفكرين ، أن
يستفيدوا من دروس التاريخ ومن اختبارات غيرهم من الأمم
ويكونوا أداة فعالة في هذا الانتقال ، فيقودوا البلاد فوق
العقبات الكأداء ، ويصلوا بشعوبهم العربية ذات الفطرة
الديموقراطية الى الهدف الذي تصبو اليه من الاستقلال والسعادة
والرقي التي ينشدها الإنسان ويسعى ويكد لنيلها - وهذه
ليست حلاً بعد اذا عرفنا كيف نستفيد من معلمنا الأكبر -
التاريخ !

ومما يجدر ذكره هنا أن الشعوب العربية في هذا الدور
قد أظهرت حيوية كامنة ومقدرة فائقة على ادارة شؤونها
بنفسها ، بل أظهرت جدارتها واستعدادها لأن تحيا حياة ديموقراطية
مستقلة تليق بالفرد العربي .

أعود الى هذا المؤلف النفيس فأقول : إنه تحفة أدبية .
فالأديب الأديب هو الذي يعنى عناية خاصة بكل مظهر من مظاهر

الحياة ، اجتماعية كانت أو سياسية أو اقتصادية ، ويلاحظ تأثيرها على المجتمع ، وقبل غيره من الناس ، يشير الى ما ينطوي تحتها من حسنات أو سيئات .

وهذا الاتجاه في ادب الاستاذ المؤلف بدأ يظهر في السنوات الماضية الاخيرة واول كتاب له من هذا النوع هو « ثورة يدبها » تلك الرواية الشعرية التي كانت فريدة من نوعها في عالم « الادب العامل » ، الادب الحي الذي يفتح عيون قرائه على آفاق جديدة ويحفزهم للعمل المشمر ، ويبعث فيهم الهمة والنشاط .

هذا هو الادب الحي وهذه مراميه واهدافه .

« فالطليعة » إذن تغتبط بزف هذا الكتاب الى العالم العربي

وترجو ان يكون منه الفائدة المتوخاة .

رجاء موراني

رئيس تحرير مجلة الطليعة

دمشق — كانون الثاني ١٩٣٨



التي كان ينطق بها لويس الرابع عشر وسبق لنا أن نقلنا شيئاً منها،
وبهذه الكلمات التي تفوه بها لويس السادس عشر نفسه، رغم ديب
الثورة المحسوس حوله في البلاد: «السلطة العليا تنحصر في شخصي
فقط . لي فقط سلطة التشريع بدون انكال على غيري أو معاونة .
الامن العام بكامله منبثق مني وأنا حاميها الاعلى . شعبي مدغم في .
حقوق الامة ومصالحها هي حتماً واحدة مع حقوق ومصالحها - وهي
موضوعة في يدي!» .

كان الملك يفرض الضرائب بيد مطلقة، وينفق بلا حساب على
بلاطه الفخم وحاشيته الكثيرة من نبلاء وكهان ومحظيات، مما أوقع
الميزانية في عجز مستمر وحمل الحكومة على الاقتراض الدائم للتغطية .
وكان الملك يسجن من أراد من الامة بغير محاكمة . يرسل اليه
«كتاباً من» الكتب المختومة^(١) وذلك يكفي لوجه في غياهب
الباستيل، او البساتيل المنتشرة في طول البلاد وعرضها .

وكان رؤساء الدين يتنعمون بثروات ضخمة كدسوها خلال
العصور السالفة . مثلاً - فوق ثلث أراضي البلاد كان في قبضتهم،
وكان هذا المقدار الهائل معفى إعفاء تاماً من الضرائب .

وكان الاشراف يعيشون حياتهم ببذخ فاحش مستفحل في قصر
فرسايل وباريس، أكثرهم على حساب الخزينة، وفي قصورهم المنتشرة
في الارياض حيث لا يزالون يتمتعون بامتيازات متحدرة من زهوة
دور الاقطاع تخولهم ابتزاز الفرائض والمكوس المختلفة من الفلاحين .

Lettres de cachets (١)

ووطء حقولهم وتخريب مواسمهم واتلاف مبذوراتهم طلباً للقنص وشغفاً
بترية الجمائم في الابراج وترك الغزلان والأرانب تسرح وتمرح .
وكان الاشراف والاكليروس لا يؤدون ضريبة الاعناق ولا
يساهمون في السخرة على الطرقات .
وكانت الوظائف العالية في البلاط والكنيسة والجيش تكاد
تكون احتكاراً تاماً للنبلاء .

بينما جماهير الامة — الطبقة الثالثة كما يسمونها وعدد أفرادها
يبلغ حوالي خمساً وعشرين مليوناً — رازحة تحت جميع هذه الأثقال
القاصمة للظهر ، وليس (فيلون) على مبالغته في سواد الصورة التي يرسمها
عن فرنسا كاذباً حين يقول عن بلاده إنها أصبحت « مستشفى عظيمًا
مملوءاً بالوبلات ، فارغاً من القوت » .

حالة كهذه لا يمكن أن تستمر بدون دفع الناس الى الاستياء
واحراجهم الى طلب المخرج مما يحيط بهم من شباك المظالم . كان الناس
يتنسمون أريج الحربه وتفحاتها من الجمهورية الاميركية الصبية التي
ساعدوا هم مادياً على صوت حياتها من مخالف أعدائها الاقوياء ،
ويسمعون من (منتسكيو) و (فولتير) حديث الملكية الدستورية في انكلترا
وبتلقون من فلاسفتهم ومفكرتهم — برغم التضيق المرهق على النشر
والكلام والاجتماع — أشعة تنيرهم ؛ تبحث لهم المظالم الفاتكة بهم ،
وتنفخ لهم في بوق الاصلاح والثورة ، وتجهز بمبادئ هي وليدة يقظة
الألفة الانسانية : البشر بحكم الطبيعة متساوون ، جميعهم لهم الحقوق
الطبيعية في السعي وراء السعادة ، في حماية أنفسهم والتصرف بأشخاصهم
وأملأكمهم ، وفي مقاومة الظلم والتعبير الطليق عن آرائهم ، الشعب هو
السلطان ، وكل حكومة ليست قائمة على رضى الجماعة هي اغتصاب .

وهكذا تشبعت الجماهير يوماً أكثر من يوم بروج النقرة
والثورة . وشعر الاسياد بانتشار هذه الروح شعوراً جلياً ، فقال
أحد وزراء لويس السادس عشر : « قوة خفية لا خزينة لها ولا حرس
ولا جيش كانت تخيم على باريس والبلاط - أجل على قصر الملك
نفسه » وقال لويس السادس عشر ذاته : « يخيل إلي أن الكون
يريد أن ينقض علي ! » .

ولئن كان لويس الخامس عشر هتف مستهتراً : « بعدنا الطوفان » ،
فإن الاسياد جميعاً لم يكونوا على هذا السقدر من الاستهتار المنكر
بل حاولوا شيئاً من الإصلاح - ولكن الإصلاح بدا مقصداً مخيفاً يقطع
من امتيازاتهم ، وهم ، لتبئس أدمغتهم وتحجر قلوبهم ، يرفضون أن يقطع
ولو بعض حواشي تلك الامتيازات .

كان ظاهراً لكل ذي عينين أن الخزينة الزاحلة إلى هاوية
الافلاس يمكن أن تالطف كثيراً من حرجة الموقف بتوفير
نفقات البلاط ، من عهد لويس الرابع عشر ، عندما باع وكيل التوفير
في البلاط نصف الخيول من الاصطبلات الملكية ، قال فولتر بتهكمه
الفج : « كم كان أقرب الى المعقول لو صرف نصف الخيول الذين يعج
بهم البلاط الملكي ! » .

فلما تسلم (تيرغو) وزارة المالية ، سنة ١٧٧٤ ، كان بنده الاصلاحى
الاول : الغاء أو تخفيض الوظائف والمعاشات والنفقات السقي لضرورة
لها . ونستطيع أن نتصور كم كانت يعود هذا التدبير بالفائدة على
الخزينة لو نفذ ، إذا عرفنا أن الملك والمالكة والامراء الذين يجري
في عروقهم الدم المائكي كانوا يذهبون بما يعادل ١٢ مليون دولاراً ،
والملك وحده أيضاً يبذل ١٢ مليوناً اخرى إنعاماً على حاشيته ومحظياته !

وكان بند تيرغو الاصلاحى الثانى : تعديل نظام الضرائب وتخفيفها عن كاهل الشعب بأشراك أصحاب الامتيازات المعفين منها سابقاً .
إلا أن تيرغو اصطدم بصخرة صماء أقامها في وجهه كل الذين خافوا شره على جيوبهم ، وخرج من الوزارة معزولاً مكسوفاً سنة ١٧٧٦ .

جاء بعده الوزير (نكر) . فتجنب طريقته وترك التقديم على قدمه ، ولجأ الى الطريق السهلة المشهورة : طريقة التغطية بقرض بعد قرض ، حتى لم يعد يستطيع الحصول على قروض اخرى فزاد الطين بلة .
وخدم الثورة في تقريره المالى الذي رفعه الى الملك ، سنة ١٨٧١ ، بأن يسر للناس الاطلاع على كيف يتبخر دخل الحكومة العظيم من الضرائب التى تسلبها من لحمهم الحى .

وجاء بعد نكر (كالون) . فوجد أن لا مناص من السير في سياسة إصلاحية أشبه بسياسة تيرغو . أصدر للملك تقريراً مالياً مشيراً الى التدابير التى يمكن اتخاذها لدرء الخطر المعاق بشعرة كسيف ديموكليس البتار فوق رأس النظام القائم ، وكان كالون يرى أوضح من الصبح ان أعند ما سيصطدم به هو حمل أصحاب الامتيازات على التنازل عن امتيازاتهم فيما يخص إعفاءهم من الضرائب .
وكان يأمل أن يستدرجهم الى القبول بضريبة على الارض يدفعها الجميع . فاستأذن الملك في دعوة مؤتمر من الاعيان : الاشراف ورؤساء الدين على الاغلب - يبحثون بعض تدابير إصلاحية من شأنها تحسين الحالة . فأذن له الملك .

انعقد « مؤتمر الاعيان » سنة ١٧٨٦ . وألقى كالون في جلسته الانتحائية خطاباً أعلن فيه مصاب خزينة الحكومة بعجز يعادل

أربعين مليون دولاراً سنوياً . وأد أن طريقة التغطية بالقروض أصبحت مستحيلة ، وأن التوفير لا يمكن أن يغطي العجز . ثم تساءل عن سبب الأزمة وعما يمكن اتخاذه من علاج قائلاً : « المظالم التي يجب أن تباد من أجل هناء الشعب هي أخطر المظالم المقامة حولها أشد التحصينات حماية لها ، هي المظالم التي لها اعماق الجذور وأوسع الفروع امتداداً . مثلاً - المظالم التي تقع بثقلها على الطبقات العاملة - الامتيازات والاستثناءات من حكم القانون الذي يجب أن يكون مشتركاً بين الجميع ، والإعفاءات الكثيرة غير العادلة التي تخفف الوطأة عن بعض دانهي الضرائب بتسويء أحوال الآخرين ، والحاجة العامة الى نسق واحد في تقدير الضرائب ، والفرق العظيم الملموس بين ما تؤديه المقاطعات المختلفة ورعايا الملك الواحد » . وأضاف كالون : « إن اصلاح هذه المظالم لا بد أن يعود على الحكومة بثروة تستخدمها لتوطيد نظام المالية المنهار » .

هز الاعيان أكتافهم وقلبوا شفاهم وذهب كلام كالون في الهواء . فحصر الملك كالون من الوزارة ثم اتبعه الاعيان ، ورجع الى سالف عهده من عقد القروض . ولما كان الدائنون يخشون على أموالهم الضياع بسبب إفلاس الخزينة ، حاول الملك أن يؤمنهم بجعل أهم مجالس المقاطعات مجلس باريس ، يصدق على عقد القروض سنة ١٧٨٧ . إلا أن الملك اصطدم بخيبة مرة ، إذ أن مجلس باريس رفض التصديق ، ولم يكتف بذلك فأعلن : « ان الأمة فقط مجموعة في مجلس ممثلي طبقاتها »^(١) يمكنها أن تعطي موافقتها على إنشاء ضريبة دائمة » وزاد في إعلانه :

« ان الامة فقط بعد اطلاعها على حقيقة حال المالية يمكنها أن تحقق المظالم وتفتح مصادر جديدة للدخل ».

وقف لويس السادس عشر وراء المتراس القديم — متراس «الحق الالهي» — وجعل مستشاره يصرح لمجلس باريس وهو حاضر : ان السلطة العليا هي للملك وحده ، وأن الحساب عن حسن قيامه بسلطته يؤديه لله الخ . . . وتمتم بين أسنانه ، حين احتيج المجلس وأصر على رفض التصديق : « سيان عندي ! . . . انه قانوني لا في أريده ! »

غير أن متراس «الحق الالهي» لم يكن ليفي عنه شيئاً . وبدأت الاضطرابات ، طلائع الثورة ، تنشب في أماكن عديدة . واضطر أن يعلن موافقته على دعوة مجلس ممثلي طبقات الامة الى الانعقاد ، في أيار سنة ١٧٨٩ ، كما طلب مجلس باريس ، بعد إجراء الانتخابات . مجلس ممثلي طبقات الامة لم يكن قد اجتمع منذ سنة ١٦١٤ . اي منذ ١٧٥ سنة . ولم تكن الجماهير تعرف عنه إلا الشيء القليل أو لا شيء على الاطلاق . وهو في حقيقته مجلس أو ثلاثة مجالس بالاحرى ، تنحدر من أواخر الزمن الاقطاعي ، كل مجلس يضم ممثلين متساوين في العدد لطبقات الامة الثلاث : الاشراف ، الاكليسوس ، جماهير الشعب أو الطبقة الثالثة . ولم يكن ممثلو كل الطبقات يحاسون أو يصوتون بسوية .

فانضح للشعب منذ البداية أن مجلساً يكون فيه ممثلو الاشراف ورؤساء الدين ضعفي ممثليهم لن يستطيع أن يحقق ما ينشدونه من إصلاح ، لان الاشراف ورؤساء الدين قد دلوا فيما مضى على تثبت فظيع بامتيازاتهم . وأي حق للاشراف والاكليسوس في هذا العدد من الممثلين والشعب أضعاف أضعافهم .

« ماهي الطبقة الوسطى ؟ » تسأل الاب (سيده) الثائر في إحدى كراريسه « هي كل شيء ! » « ماذا كانت حتى الان في النظام السيلاسي ؟ » « لا شيء ! » « ماذا ترهب في أن تكون ؟ » « تريد أن تكون شيئاً ! »

اجل ، كانت الطبقة الوسطى ، فائدة الشعب المكافح اذ ذلك ، ترهب ان تكون شيئاً . وقد انتصرت ، وانتصر معها الشعب ، في مسألة عدد ممثليها في البرلمان ، لان الوزير نكر ، الذي استرجعه الملك آملاً أن ينجح في تنظيم المالية ، وافق على أن يكون للطبقة الثالثة عدد من الممثلين مساوٍ لعدد الطبقتين الباقيتين جميعاً .

بقيت مسألة التصويت . هل يصوت ممثلو كل طبقة على حدة ام يصوتون جميعاً ؟ لبثت هذه المسألة معلقة ، لأن نكر لم يوافق على تصويت الممثلين جميعاً كهيئة واحدة ، مع ان الشعب ، في الكراريس التي اوعز اليه بتحضيرها وبسط رغباته فيها ، كان صريحاً في طلب تصويت الممثلين جميعاً .

ويجدر بنا القول ان الشعب في هذه الكراريس كان صريحاً ايضاً في طلب الدستور ، وفقاً لما جاء في إحدى الكراريس : « بما ان السلطة المطلقة قد كانت منبع كل الشرور المبتلاة بها الدولة ، فان رغبتنا الاولى هي انشاء دستور وطني ، دستور يحدد حقوق الجميع ويسن القوانين لصيانة هذه الحقوق . »

اخيراً ، في ٥ أيار سنة ١٧٨٩ ، اجتمع مجلس ممثلي طبقات الامة . ونشب تطاحن عنيف كان لا بد ان ينشب حول مسألة التصويت : هل يصوت الممثلون بالافراد . ام بالطبقات ؟ رفض ممثلو

الشعب طريقة التصويت على حدة بالطبقات ؛ وبعثوا الدعوات الى ممثلي الاشراف والاكليروس لينضموا اليهم ، فأبى ذلك اكثريةهم . وكان الحماس العام وراء ممثلي الشعب فمشجعوا واعانوا الجمعية الوطنية في ١٧ حزيران سنة ١٧٨٩ م ، وعزموا على استلام مهام الحكم ، بالاشراف والاكليروس او بدونهم ، طالما هم يمثلون ٩٦ بالمئة ، مع ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لمن يريد الانضمام اليهم .

واقسموا قسمهم الشهير ، في ٢٠ حزيران ، في الساحة : وكان القسم يقضي : « ان يجتمعوا حيثما تتطلب ذلك الظروف حتى تتأسس اركان الدستور . »

في ٢٣ حزيران ، عقد الملك جلسة جامعة لممثلي الطبقات الثلاث ، وأملى صفحات طويلة من اصلاحات في نيته تحقيقها . ثم أمر النواب ان يتفرقوا ليعودوا الى طريقة الاجتماع القديمة على حدة . فاطاعه فريق كبير من عليمة الاشراف والاكليروس . ومكث الباقون في مقاعدهم . فأمرهم الأمر أن يطيعوا الملك ، فجاء جواب ميرابو راعداً : « نحن هنا بارادة الشعب ، ولن نتفرق الا على رؤوس الحراب . »

ظهر تماماً ان الجمعية الوطنية قد اكتسحت الموقف ، وان الشعب قد هب لتحطيم نيره . وامتدت الثورة المسلحة الى المناطق الريفية وشملت بعاصمتها الفلاحين ، فطفقوا يثبون على قصور الاشراف وبلقحون النار ما يجدون فيها من صكوك الفرائض السنوية على الفلاحين ، ويصيحون بالاشراف : ان زمان امتيازاتهم يلفظ انفاسه . فعقدت الجمعية الوطنية جلسة تاريخية ليلة ٤ آب وسطرت لائحة الاصلاحات

المتعلقة بالفلاحين ونوجّهتها بهذه العبارة : « انت الجمعية الوطنية
الغت النظام الاقطاعي الغاءً باتاً » .

وفي ١٤ تموز سنة ١٧٨٩ ، قام الشعب بالعمل الرمزي الكبير :
هدم الباسيتل وبعث القائد لافاييت بفتح السجون الارهابي المظلم
الى وشنطون القائد المحرر الاميركي رمزاً لما غنموه من اسلاب
الاستبداد » - أي رمزاً لانتصارهم التاريخي العظيم .

لسنا بحاجة الى ان نتوغل في تفصيل حوادث الثورة وتاريخ فرنسا ،
وانما نلقت الى ما انتجته الثورة من مبادئ ثورية في الحكومة والدولة .
هناك وثيقة يجب أن يقف عليها كل من يريد الاطلاع على
ثمرة الثورة الفرنسية وروحها . وهي وثيقة خالدة في تاريخ الانسانية .
ولئن كان بعض النقاد يحاولون التقليل من قيمتها بحجة أن ما فيها
هو حلم جميل - حلم جميل فقط ! - فينبغي لهؤلاء النقاد أن يعلموا
ان الاحلام الجميلة هي عامل في تاريخ الانسان ، وان من أدلة حب
الانسان للتكامل هذه الاحلام الجميلة نفسها ، التي تسبق واقع الامور
بمئات والوف السنين .

انتهى نص حقوق الانسان بشكله الاخير في ٢٦ آب سنة ١٧٨٩
وأذاعته الجمعية الوطنية على الشعب قائلة في ندائها : « ان حقوق
الانسان قد أسيء تصورهما واهينت مدى أجيال كثيرة . وان حقوق
الانسان ستوطد دعائمها للانسانية جميعاً في هذا الاعلان الذي سيظل
صخرة حرب دائمة في وجه جميع الظالمين ! » .
وفيما يلي خلاصة لأهم بنود الاعلان :

* يولد الناس أحراراً وبلبثون كذلك متساوين في الحقوق .
والحقوق هي : الحرية ، الملكية ، الأمن ، مقاومة الظلم .

* حدث الحربة أن يباح للانسان عمل كل ما يربد شرط أن لا يؤذي غيره .

* التفاضل الاجتماعي لا يمكن أن يقوم إلا على أساس المصلحة العامة .
* الشرائع هي ظاهرة منبثقة من الارادة العامة . وحق لكل مواطن أن يشترك شخصياً أو عن طريق نائبه في سنها ، ويجب أن تكون سواء للجميع .

* كل المواطنين في حكم الشرائع سواء . ولذلك يمكن لجميعهم الدخول في المناصب والوظائف على قياس كفاءتهم وذكائهم .
* لا يمكن أن يتهم شخص ، أو يقبض عليه ، أو يسجن إلا في حالات محصورة في القانون ، وطبقاً لأساليب مشروحة فيه .

* كل المواطنين لهم الحق أن يقرروا شخصياً أو عن طريق نوابهم ، فيما إذا كانت الاعانات العامة ضرورية أم لا ، ولهم الحق ان لا يدفعوا الاعانات إلا عن حربة ، وأن يعلموا في أي الوجوه سيجري إنفاقها .
ولهم الحق في أن يحددوا نسبة الضرائب واسلوب تقديرها وجمعها ومدى دوامها .

* حق الملكية مقدس لا يستطيع أحد نزعها ما لم تستوجب ذلك المصلحة العامة ، وما لم تكن الحاجة اليه ثابتة ثبوتاً قانونياً لأمناص منه ، وما لم يكن قد عوض عن الملكية المنزوعة بثمن عادل .
* الهيئة الاجتماعية لها الحق في أن تطلب من كل موظف حساباً عن سيرته في الادارة .

* لا يجوز أن يُزعج أحد بسبب عقائده — دينية وغيرها — بشرط أن لا تكون المجاهرة بها مخلة بالامن العام الذي أثبتته القانون .
* ان التبادل الحر فيما يخص الافكار والآراء لمن أثنى حقوق

الانسان • بناء عليه • كل مواطن له أن يتكلم ويكتب ويطلع بحرية
مع العلم انه مسؤول عن إساءة استعماله هذه الحرية حسب ما ينص
القانون •

* من مبادئ الثورة أن تكون السلطة للامة • وشعارها: الحرية •

الاخاء • المساواة !

ان هذه الحقوق التي أعلنتها الثورة الفرنسية للعالم هي : الجنى
الذي أثمرته شجرة الديمقراطية في ابان ازدهارها •
والآن نتقدم الى فصل ثان • ونعود الى مرافقة التطور التاريخي
تمهيداً لفهم آفاق جديدة من الحقوق فتحها أمام الانسان •



الانسان بأوسع حقوقه

عصر الاشتراكية

١ - خلاصة حقوق الانسان

الذي اتمررها الديموقراطية البورجوازية

لا بأس أن نقدم ، في مفتتح هذا الفصل ، خلاصة لحقوق الانسان في ظل الديموقراطية الرأسمالية التي درسناها ، كما تظهر هذه الحقوق ناضجة في أهم دساتير العالم ، خصوصاً الدستور الانكليزي والاميركي والفرنسي . ونرى أن تكون الخلاصة على الصورة الآتية :

حق الحياة والحرية الشخصية : لا يمنع الانسان من التمتع بحياته وحرية شخص - أي : لا يقبض عليه ، ولا يوقف ، ولا يسجن ، ولا يعدم ، إلا بالشكل الذي ينص عليه القانون ، وبعد أن يكون قد اتيح له حق الدفاع عن نفسه اباحة كاملة ووجدته القانون مسؤولاً عن ذنب يقتضي اجراء العقاب بحقه .

حق التعبير : يتمتع الانسان بحق حرية الفكر والكلام والطباعة والنشر والخطابة والتظاهر وعقد الاجتماعات ، وحق حرية الانتخاب لممثليه في الحكومة ، ورفع الاحتجاجات والعرائض إلى السلطات . وبعض الدساتير الثورية تبيح للانسان حق الثورة على

الحكومة الظالمة ، كدستور سنة ١٧٩٣ الفرنسي الذي يقول : « متى خرقت الحكومة حقوق الشعب أصبحت الثورة حقاً مقدساً للشعب ، وليس كل قسم منه واجباً لا مناص منه ! »

حق الملكية : يتمتع الانسان بحق ملكيته الخاصة ، فلا يجوز النيل من هذا الحق بأي صورة من الصور سواء اكن ذلك بالمصادرة او الحجز او فرض الضرائب ، إلا في احوال تقتضيها المصلحة العامة ويستوجبها القانون بنصوص معينة .

حق العقيدة والعادات : يتمتع الانسان بحق ممارسة عقيدته الدينية وعاداته وحفظ تقاليده . والقانون يحميه من اضطهاد يثاله بسبب ذلك ، ومن تحقير يمس بكرامة عقيدته وعاداته ويستفزه .

٢ - الديمقراطية البورجوازية تحمل من الانسان الوقتصادي

إذا دققنا البحث في هذه الحقوق التي أباحها للانسان عصر الديمقراطية الرأسمالية في إبان نضجه فاننا نجد انها تتناول جانبين من حياة الانسان فقط : جانب الحياة المدنية وجانب الحياة السياسية . وهذان الجانبان على أهميتهما لا يزال يعوزهما جانب ثالث حتى يثاء ذلك هو الجانب الاقتصادي . فان الانسان إذا كان سياسياً بالطبع كما يقول أرسطو ، ومدنياً بالطبع كما يقول ابن خلدون ، فهو اقتصادي بالطبع أيضاً كما يشهد الواقع .

✗ الديمقراطية الرأسمالية امتت الانسان على حقوق سياسية ومدنية ، ولكنها لم تؤمنه على اي حقوق اقتصادية مع ان الواقع يشهد ان كثيراً من القدرة على ممارسة الحقوق السياسية والمدنية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطاقة الانسان الاقتصادية . الديمقراطية الرأسمالية رفعت في

ميدان الاقتصاد شعاراً : « دع التيار يجري على هواه » ^(١) وهذا ليس
تحقيراً منا للديموقراطية الرأسمالية ، فانها كانت خطوة تقدمية جبارة
بالقياس الى ما سبقها ، ولكن رغبة في تكميلها حتى تصبح اعم
وأشمل - أي حتى تصبح ديموقراطية اشتراكية .

وهنا لا بد لنا أن نلتمس قليلاً الى الطبقة الوسطى المتمولة ،
البورجوازية ، فتتابع سير تاريخها بعد ان عرفنا كيف قادت ثورات
المجتمع التحريرية ضد طغيان الاقطاعية والملوك الاوتوقراطيين . فان
هذا ضروري جداً لفهم نقائص ديموقراطيتها ، وفهم الديموقراطية
الاشتراكية التي تولد منها وتنتصر عليها وتضيف اليها ما كان ينقصها
من تأمين الجانب الاقتصادي من حقوق الانسان ، مع سد اي نقص
آخر يكون فيها .

للطبقة البورجوازية رأي واضح في مهمة الحكومة نادت به ،
وهي لا تزال في دور ثوراتها على الاقطاعية والاولوقراطية . يتلخص
هذا الرأي في كلمات (هوراس كريلي) من مفكري الثورة الاميركية
الاستقلالية ، حيث يقول عن الحكومة : « يجب ان تشجع وتشر
الصناعة ، العلم ، الاختراع ، الرقي الاجتماعي والمادي »

إذن ، فالطبقة البورجوازية استلمت الحكم ولها هدف تقدمي عظيم :
الصناعة ، العلم ، الاختراع ، الرقي الاجتماعي والمادي وليس من
ملم بالتاريخ ينكر على البورجوازية توفيقها الهائل في تحقيق هدفها
التقدمي العظيم . فنتج رعايتها تحققت الاختراعات الآلية المدهشة التي
قلبت أساليب الانتاج رأساً على عقب ، وضخمت مقادير الانتاج الى

حد لم يسمع بمثله في التاريخ ، وساطت الانسان على استثمار موارد الطبيعة تسليطاً لم يكن بإمكانه من قبل — مما يدخل جميعه تحت اسم الثورة الصناعية التي دارت دواليبها في اواسط القرن الثامن عشر ولا تزال دائرة : « ليس من امبراطورية أو شيعة أو نجمة ظهرت وكان لها السلطان أو التأثير على قضايا البشر ، كهذه المستنبطات الآلية » يقول الفيلسوف الانكليزي فرنسيس باكون .

الثورة الصناعية هي التي خلقت المصانع الحديثة الرائعة والمدن العصرية العاجية بالسكان والمشاكل ، ودفعت التجارة الى اقصى زوايا الارض ، وحاكت شبكة احاطت بالعالم كله . واختصرت ابعاده ، وقضت على عزله القديمة عن بعضه ، وجعلته في كل مكان يتأثر مباشرة أو غير مباشرة بما يجري في المكان الآخر .

غير ان البورجوازية ، بما قام تحت قيادتها ورعايتها من ثورات على الاقطاعية والاونوقراطية وثورات صناعية ، سكنت ترمي الى مصلحة طبقية افانية ، وان كنا لا ننكر ان تحقيق مصلحتها الطبقية الانانية كان يوافق التقدم التاريخي آنذاك .

البورجوازية ثارت على الاقطاعية ، وعلى الكنيسة التي كانت اقطاعية هي الاخرى ، لانها كانت تريد تحرير الفلاحين الاقنان ، لا من سيادة الاقطاعيين البغيضة فقط ، بل من صلتهم بالارض ايضاً ، اذ بدون ذلك يستحيل جرهم من اربابهم الى مدنها الصناعية ليعملوا لها فيها في المصانع . البورجوازية ثارت على نظام الصناعة في القرون الوسطى ، وعملت على تجريد الحرفيين الصغار من أدوات انتاجهم وأخرجتهم من حوائطهم الضيقة وفقت نقابات القرون الوسطى ^(١) لتدفع بهم الى

مصانعها الكبيرة ، وتزبل مزارعتهم لها وتجعلهم متوكلين عليها .
 البورجوازية ثارت على الامة توقيراطية لأن الملوك المطلقين « الملوك
 بنعمة الله » كانوا يقيدون نمو ثروتها وتجارتها بسلاسل ثقيلة من
 ضرائبهم وتكاليفهم التي يفرضونها على هوام . البورجوازية بثوراتها
 كانت ترمي الى تنصيب ديكتاتوريتها المطلقة على المجتمع ، وإن
 رفعت علم الحزبة والتساوي والاخاء .

٣- البورجوازية ترمي أولا الى

تنصيب ديكتاتوريتها الطبقية المطلقة

والواقع أن البورجوازية ، وهي لا تزال في دور ثورتها واستلام
 الحكم ، كانت لتكلم صراحة بين الحين والآخر ، بقصد حق
 الانتخاب - اي الاشتراك في بناء كيان الحكومة - على من يتمتعون
 بمقدار من الملكية الخاصة . هذا (بابوف) يقول في الجمعية التأسيسية
 الفرنسية سنة ١٧٩١ :

« إن أبناء الوطن الذين يضطرون بسبب فقرهم الى الشغل حتى
 يقضوا حاجاتهم لا يتمكنون من أن يكون عندهم بصيص معرفة
 لا بد من وجودها في الانسان حتى يحسن الانتخاب ولا يبالون
 بالمحافظة على النظام الاجتماعي الراهن »

وهذا (بواسي دانغلاس) يقول في تقرير عرضه أثناء وضع دستور
 السنة الثالثة الفرنسي :

« ان المرء الذي لا مال عنده قلما يتحلى بالفضيلة التي تدفعه الى
 المحافظة على نظام اجتماعي لم يترك له شيئا . والى اعتناق الآراء

أساس تمهيدي

الدولة والحكومة وحقوق الانسان

سبع مبادئ أولية

موضوعنا حقوق الانسان في هذا المجتمع البشري الذي تطورت فيه الحياة وعلائق الناس ومصالحهم حتى بلغت درجة من التركيب والتعقد والتناقض يستحيل معها على الناس أن يعيشوا بدون ما يسمونه دولة وحكومة^(١).

فنحن عندما نقول حقوق الانسان في المجتمع نقصد حتماً حقوق الانسان بالنسبة الى دولة وحكومة المجتمع.

فلا بد لنا إذن ، ونحن نبحث حقوق الانسان ، من أن نلّم بببحث الدولة والحكومة المأماً سريعاً على مقدار ما نحتاج لغرضنا .

ان الدولة والحكومة وطبيعتهما لأمر مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً ، ومشتبكة بطبيعة المجتمع نفسه . الدولة والحكومة منفردتان الجذور في تربة المجتمع نفسه ، نابتتان متغذيتان منه ؛ وليستا مفروقتين عليه من الخارج مطلقاً لقد ذكرنا منذ قليل ، أن الدولة والحكومة تنشآن عن تطور الحياة وعلائق الناس ومصالحهم حتى نتم درجة من التركيب

(١) الدولة شيء أعم وأوسع نطاقاً وأطول عمراً من الحكومة . فالحكومة شيء داخل في نطاق الدولة . هي الهيئة القابضة على مقاليد السلطة في آن ما ، وتبديل وتعدل بينما جوهر الدولة يبقى واحداً .

والتعقد والتناقض يستحيل معها على الناس أن يعيشوا بدون دولة وحكومة ، وذلك يعني : بدون قوة مهيمنة عليهم تسيطر عليهم في حياتهم وعلاقاتهم ومصالحهم .
لماذا ؟ ما السر في ذلك ؟

السر في ذلك هو تناقض مصالح الناس ، في هذه الدرجة من تطور مجتمعهم ، تناقضاً يهدد دائماً بالانهيار في اصطدامات دموية عنيفة ، ما لم تكن هناك هذه القوة المسيطرة الكالكة . وتناقض مصالح الناس صادر عن انشقاقهم الى طبقات ، وانشقاقهم الى طبقات هو بحسب تمركز الملكية الخاصة في أيدي فئتين منهم دون فئتين — الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته فوق كل شيء ، وهي تلك الملكية التي تسلط صاحبها تسليطاً على حياة المجتمع الاقتصادية وما يترتب عليها من سائر مناحي الحياة .

لما تقدم ، نستطيع أن نستخلص سبع مبادئ أولية في الدولة والحكومة نجعلها بما يلي :

(١) الدولة والحكومة لا تتلقان المجتمع ، بل المجتمع ، في درجة من تطوره ، يشعر بضرورة الالتجاء الى الدولة والحكومة .

(٢) لقد مر المجتمع في طور لم يكن فيه دولة وحكومة ، وذلك عندما لم تكن حياة المجتمع وعلاقات الناس ومصالحهم قد تركبت وتعقدت وتناقضت بحيث أصبح لا بد من قوة مهيمنة كالكة .

(٣) سيحيي طور من أطوار المجتمع نلتاشي فيه الضرورة الى الدولة والحكومة ، فتتجلى فيه الدولة والحكومة بالتدريج ، وذلك عندما يقضى على الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته فوق

كل شيء ، فيُقضى على نظام الطبقات ، فيقضى على تناقض مصالح الناس ،
فتنتظم الحاجة الى الدولة والحكومة الكالجمية .

(٤) كل دولة وحكومة تستندان ، في الغربلة النهائية ، الى القوة
(وهذا ليس يعني أن الدولة والحكومة تلجان دائماً الى العسف في
كل عمل) .

(٥) الدولة والحكومة ، في أي مجتمع ، هي دولة وحكومة
الطبقة المسيطرة في ذلك المجتمع — أي الطبقة المستوية على وسائل
الانتاج وأدواته ، المتمكنة بفضل استيلائها على هذه الوسائل
والأدوات من التحكم باقتصاديات المجتمع .
(٦) هذه الطبقة المسيطرة قد تكون الأقلية الصغرى ، وقد
تكون الأكثرية الكبرى .

(٧) كلما استيقظ المجتمع ، وزاد تحسسه ، ونضج إدراكه تاق الى
نزع الدولة والحكومة من يد الأقلية الصغرى ، ووضع مقاليدها في
يد الأكثرية الكبرى — أي حوّل وجهه شطر ديموقراطية أوسع
فأوسع (١) .

(١) يلاحظ القارئ في هذه النقاط السبع مخالفة للتفكير الفاشستي في الدولة والحكومة
فان الواضح من هذه النقاط : ان الدولة والحكومة اتا هما واسطان الى غاية ، لا غاية
بنفسهما . أما التفكير الفاشستي فيزعم ان الدولة والحكومة غاية بنفسهما ، ويسبغ عليهما
صفة شمية ساهوية ، ويقرر انها ثابتتان الى الابد ، وأن تدبير شؤونهما مما يخص دائماً
أقلية ممتازة ، الى غير ذلك من الادعاءات التي تنسها حقائق التاريخ . ومن اراد
زيادة الاطلاع على مسألة الدولة والحكومة فليراجع كتاب لينين : « الثورة والدولة »

من هذه الملاحظات السريعة في الدولة والحكومة تنبثق أشعة
تنبير لنا شعاب موضوعنا : حقوق الانسان ، انارة شاملة .
فنرى أن وجود الدولة والحكومة إنما هو في حد ذاته انتقاص
لشيء قليل أو كثير من حقوق الانسان .

ونرى ان الدولة والحكومة كلما اشتد تمركزهما في يد الأقلية
الصغرى من المجتمع — أي كلما كان شكل الحكم منحرفاً الى
الاولوقراطية والاستبداد — ضاق مدى حقوق الانسان . بعكس
ما لو كانت الدولة والحكومة ديموقراطيتين متمركزتين في يد الاكثريّة
الكبرى ، فان الحقوق التي يتمتع بها الانسان في المجتمع ، عندئذ ،
يتسع مداها جداً .

ونرى أخيراً أن حقوق الانسان لن تبلغ أعظم مداها من السعة
إلا بعد إنهاء الملكية الخاصة في وسائل الانتاج وأدواته ، وجعل
هذه الوسائل والأدوات ملكاً عاماً للشعب — أي بعد قيام الاشتراكية
وتطورها حتى تنحل الحكومة والدولة اللتان تحميان ملكية طبقة
احتكارية خاصة من المجتمع ، لوسائل الانتاج وأدواته . . .



الانسان بلا حقوق !!

طغيان اسباد الكهنوت والاقطاع والملوك

== اوائل يقظة الانسان ==

١ - المجتمع العبودي القديم

«هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟»
ما أشد ما تعيد الى الذهن هذه الآية المتسائلة التي يفتح بها القرآن «سورة الدهر» ذكرى عصور سحيقة ملؤها الفظائع من حرمان الانسان وعذابه واحتقاره ، عصور لم تزل منها بقايا تمتد إلى افق يومنا هذا . ولعلها تنذر باستجماع قوتها وتجديد سيطرة البربرية على العالم بأحدث أشكالها - الشكل الفاشستي كما سنرى - ان لم يعرف الانسان كيف يحتفظ بانتصاراته التي أحرزها خلال العصور بالدم ، وكيف يعززها بانتصارات جديدة .

حقاً تلك عصور لم يكن فيها الانسان شيئاً مذكوراً ! نقلب من التاريخ الصفحات التي تحمل لك حديث تلك العصور ، فإذا أنت أمام ملوك تحت تيجانهم وفوق عروشهم وفي حلالهم الارجوانية ، أسماؤهم فراعنة ، أكاسرة ، قياصرة الى غير ذلك ، وبينهم مئة نيرون ونيرون ، يحيط بهم رؤساء الدين والاشراف : أرباب الاقطاع وامراء الجيوش ؛ جميعهم أعضاء شركة استثمارية كبرى يتناحرون فيما بينهم ، يبيتون

المكائد لبعضهم ؛ ولكن كلهم يتحالفون على « الانسان » لا يريدونه أن يخضع من رقبته نير شركتهم الاستثنائية ، الانسان الكادح هو والثور في حقوقهم يستنتب لهم من الارض طيباتها ، الصانع في زوايا حانوته الصغير ، المتاجر في السوق ، الجندي في جيوشهم يحمل سيف الفتح تحقيقاً لأطماعهم ؛ الانسان الذي يؤلف جماهير الشعب العريضة العميقة . على مدار السنة يحينه الجاني « بالكرباج » يقبض الخراج ؛ يحينه الشريف ينتزع منه موسم عضلاته وقوت عياله ، أو يسلب بضاعته أو يسوقه الى حرب الغزو ؛ ويحينه أخيراً أسياد الكهنوت يباركون تعاسته وخضوعه بألفاظ الرسول بولس الى الرومانيين (أو بما يشبهها) : « ليس سلطان إلا من الله . والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله ! »

ولقد لاحظ مؤرخ حاذق في جميع الرسوم التي بقيت لنا من أزمنة الفراعين انه ليس هناك رسم واحد لفلاح يتمتع نفسه ، أو يشتغل لحسابه تحت كرمته الخاصة وتبنته ؛ وليس هناك رسم يدل على أن فكراً مستقلاً أو نظراً أو عملاً من الاعمال كانت جائزة للناس الفقراء ، بل هم جميعاً تحت وطأة التدريب الرسمي لخدمة الامير . ولاحظ مؤرخ آخر انه وفقاً لتقليد راسخ في الرسوم المصرية يتمثل لنا صاحب القبر في شكل ضخم جبار وفي قبضته العصا وقامته على علو الخائط الذي يحمل الرسم ، بينما سائر الخائط مقسم الى شبه غرف يتمثل لنا فيها عبيده وهم يكدحون في اعمالهم المختلفة ، والعريف أو مراقب العمل حاضر دائماً والجلد مستمر وليس من أحد معفواً . من العمل على الاطلاق حتى المقعدون ، وكثيراً ما تقرأ فوق رؤوسهم العبارة التالية : « عبيد في بيتنا مولودون وهم في دفاتر البيت الى الابد مسجلون ! »

كان طغيان الاشراف ورؤساء الدين والملوك مطلقاً على الشعب . فلم يكن من الممكن أن يكون للانسان حقوق مؤمنة يطمئن على سلامتها . يصح هذا القول حتى على الاغريق والرومان أهل الديموقراطية القديمة ، فان « ديموقراطيتهم » التي تنعموا بها لم تكن قائمة إلا على اكتاف مئات الالوف ، بل الملايين ، من العبيد المجردين من حقوقهم الانسانية . وأفلاطون حتى في جمهوريته المثلى التي جعل حكامها فلاسفة مستنيرين لم يحرم العبيد قط وأخذ وجودهم مأخذ الامر الطبيعي . وشيشرون الذي نقرأ له خطبة ناربة في الاحتجاج لأن أحد الرومانيين جلد ، ونلمس غضبه الثائر لهذا الاعتداء على الكرامة الانسانية ، نراه في موضع آخر يبحث بكل جد وبرودة : هل يطعم العبيد عندما يكون حاصل القمح قليلاً أم يتركون للموت جوعاً ؟ هذا والعبيد هم الذين كانوا ينتجون القمح !

ولئن صح هذا القول على الديموقراطية القديمة فإنه ليصح طبعاً على الامبراطوريات الشرقية القديمة ، والامبراطورية الرومانية ، والامبراطورية البابوية ، والامارات الاقطاعية المتعددة في القرون الوسطى ، والملوكيات الاوتوقراطية التي نهضت على أنقاض الامبراطورية البابوية وأشلاء الامارات الاقطاعية ؛ قبل أن أخذت الثورات الديموقراطية - بما فيها الثورة الفرنسية الكبرى - تهبط فتعصف ببعض هذه الملكيات ، وتعطل بعضها تعديلاً أساسياً .

التاريخ بسير

غير أن التاريخ كان يعمل عمله . كان يتطور وتسير عجلاته برغم بطء وثقهقر وقتي هنا وهناك ، ويتجه تطوره نحو تقييظ الانسان الى

أن له حقوقاً سطا عليها الساطون وأرزحوه تحت أعباء من تكليفهم الباهظة لأجل رخائهم وسيطرتهم. ان الخط الذي مازال يسير فيه التاريخ منذ عصوره السحيقة المظلمة خط فيه تعاريج وفيه رجعات صغيرة وكبيرة؛ ولكنه خط يتجه دائماً إلى أمام — يتقدم — والتاريخ يسير فيه بزحف بطيء. لكنه مستمر. وقد ارتبط بمقدمة التاريخ الانسان المتيقظ الى حقوقه المسطو عليها — الانسان المغموط الشائر — وإلى جانبه أصحاب الضمائر الحية والادمغة النيرة الخارقة للجبب، الذين رفعهم الفكر والإخلاص الى قمته فوق التدجيل وعمل المصلحة الذاتية. فأطلوا على مروج المستقبل الخصبة وربطوا أنفسهم بمقدمة التاريخ مع الانسان، كتفاً إلى كتف، يجرّون التاريخ فوق العقبات الى أمام، الى مروج المستقبل.

هؤلاء الذين رفعهم الفكر والإخلاص الى قمته، من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وفنانين ومخترعين وأنبياء ومتصوفين وثوار ومصلحين وشهداء في سبيل الخير البشري من كل نوع، فكانوا انسانيين واصطفوا في معسكر الشعب ضد أعدائهم، قد نادتهم أصوات كثيرة تحذرهم من عواقب عملهم، من هول الانسان إذا هو انعتق وأفلت. وما صوت فولتير — على رغم كونه ممن أدوا خدمة الى التحرر من بعض نواحيه — الا واحد ممثّل لكل تلك الاصوات المحذرة حين يصيح بالمفكرين الانسانيين: «تفلسفوا فيما بينكم مقدار ما تشاءون. يخيّل لي اني أسمع عشاق الفن يوقعون للذتهم موسيقى ناعمة. ولكن احترزوا احترزاً قوياً من أن توقعوا موسيقاكم أمام الجبهة، الوحشين، السوقيين (أي جماهير الشعب) فقد يحطمون آلاتكم على رؤوسكم!»... إلا أن المفكرين الانسانيين المخلصين لم يكتفوا بالاولئك الذبّ. ترتعد فرائضهم عند ذكر الشعب وحقوقه، فانتصبوا خلال العصور تماثيل ناطقة تشير إلى أن الانسان مقيد مظلوم

محروم ؛ الى أن المجتمع يقوم على أسس جائزة عاتية تنال من كرامة الانسان وأنفته وتدفن سعادته المادية والمعنوية تحت ركام من أوساخ الامتيازات ، ويرون في نشوة أحلامهم وقتماً - قريباً أو بعيداً - ينبثق فيه مجتمع تشيع فيه العدالة وتضامن للانسان حقوقه . ديموقريطس ، الفيلسوف اليوناني الملقب (بالضاحك) شهد في حلمه مثل هذا المجتمع ورسم له القواعد الآتية : « ان المجتمع الوحيد الذي يستحق الاكتراث هو ذلك المجتمع الذي يفسح لا كثرية الناس اعظم مقدار ممكن من السعادة ، بأقل مقدار ممكن من الألم ! » وبرتو غاروس ، الفيلسوف اليوناني الآخر لمع خياله ما لمع خيال ديموقريطس وقرر لنا : « ان الانسان مقياس كل شيء ، وان جميع قواه ينبغي أن تكسر لجعل هذا الوجود أجمل وأمتع للنفوس ! » وديموقريطس وبرتو غاروس اثنان من كثيرين لا يحصى لهم عدد .

ليس يضير هؤلاء المفكرين المخلصين انهم كثيراً ما انسلخوا مع خيالاتهم عن الواقع وضمنوه قشوراً . ليس يضيرهم ان المجتمع لم يكن بلغ من التطور التاريخي ما خلق الامكانيات المادية لتحقيق أحلامهم ، فاضطروا أن « يعيشوا في الشوق بدون أمل » كما يقول دانتي عن سكان جحيمه ؛ وأن « يموتوا بغيبظهم » كما يقول المعري ^(١) ، وينحرفوا ويشذوا شتى اشكال الانحرافات والشذوذات : ينطرحون في أحضان السقنوط والتشاؤم ، يستخطون ويلعنون كالجائنين ، ينسحبون من المجتمع الى زوايا نفوسهم أو الى كهوف الجبال ، ينقلبون على أعقابهم الى ماضٍ سحيق يتوهمون فيه العصر الذهبي ، ويشيدون عوالم أحلامهم في دنيا غير هذه الدنيا . . . كل هذه الوان من الضعف لا تضيرهم ولا تضيرنا - نحن - ورتهم

(١) في بيته : غلب المين منذ كان على الخلق وماتت بغيبظها الحكماء !

العقليين — شرط أن نفهمهم كما يجب . فإن سير حياتهم ، بما فيها من أحلام
عن مستقبل الانسان وتمايلات ولوعات ، تبقى ألوأحاً راضية ، إلى ما في ضمير
الانسان المقيّد المظلوم من شوق منفجر أو مكبوح إلى حقوقه المغصوبة ،
وإلى التحرر والتكامل .

٣ - بربرون إيقاف التاريخ وما هم بقادريين

ولكن لا ننس مؤخرة التاريخ ! فهناك أيضاً اناس قد ربطوا بها
أنفسهم وأنشأوا يشدون بجميع قوى عضلاتهم إلى وراء . لماذا ؟ ليقفوا
عجلات التاريخ عن السير ، ليمنعوا الانسان ومن إلى جانبه من المفكرين
المخلصين أن يجرؤا التاريخ إلى أمام ، ليبقوا الانسان تحت مواطئ أقدامهم
خاضعاً لشر كتهم الاستثارة الكبرى .

على أن ذلك مستحيل . يستطيع الرجعيون أن يشغلوا الانسان
بجروب الفتع والنهب لمجدهم وربهم ، ويحشوا مسامع الشعب بنحو الفخر
الفارغ الذي تشدق به الطاغية الاشوري سنحريب ، حين قاد حملته ضد
زميله حزقيا ملك اليهود : « اكتبسحت ستا وأربعين من مدنه المسورة . فاما
من المدن الصغرى المنتثرة هنا وهناك ، فاكسحت ونهبت عدداً غفيراً .
وأسرت وحملت معي من هذه المواضع ٢٠٠٦١٥٠ انساناً غنائم — كباراً
وصغاراً ، ذكوراً وإناثاً — مع الجياد والأفراس ، الحمير والجمال ، الثيران
والأغنام بمقادير لا تحصى ! » يستطيع الرجعيون أن يمتنعوا أنفسهم بما متع
به نفسه يوستينيانوس ، حين كتب بالقلم العريض في صدر شرائعه عن
سلطة الامبراطور : « له (اي : لي) فقط الصلاحية أن يسن الشرائع وأن
يفسرها ! »

ويستطيع الرجعيون أن يدعوا الصلة بالله أو بالآلهة ، أن يشعزوا

وبدأوا ويظهروا بلباس الناصحين المغري الغشاش - لباس مرهقي الخير -
 ويزدروا شرف العلم أمام الانسان ويزعموا باسان أب كغسطينوس: « أن
 رجلاً كأفلاطون معقوه » و « أن المغفلين هم الذين يدخلون الجنة » و « ان
 العبودية هي شيء واقع بقضاء من الله » بسبب الخطيئة ، وليست هي في نظر
 الله جريمة على الاطلاق ! » ^(١) يستطيع الرجعيون أن يضعوا على « اللائحة
 المحرمة » ^(٢) الكتب التي يخشون منها شرّاً على أسس سيادتهم لما فيها من
 الغام ناسفة . يستطيعون أن يصرخوا صراخ سان برنار عن بطرس أبيلار
 المفكر الذي بدأ يأخذ باحكام العقل ويخلع نير التقليد والتصديق الاعمي :
 « أنه يجر الارض جميعها وراءه . لقد حان الوقت أن نخرسه بالسلطة الرسولية ! »
 يستطيعون أن يمسكوا رجلاً كيوحنا هس يتحمل عقله من قبول
 دعاويهم وخرافاتهم فيسخروا منه ، يقصوا شعر رأسه في شكل صليب
 ولبسوه تاج ورق منقوش بصور الأبالسة ويقولوا له : « اننا نكرس
 روحك للأبالسة في الجحيم ! » .

يستطيعون أن يقولوا ما قاله فرانسوا الاول امبراطور النمسا في وصيته :
 « احكموا ولا تغيروا شيئاً » ، وأن يرددوا ما خاطب به جماعة من الاساتذة
 سنة ١٨٢١ : « أنا لا حاجة لي بالرجال العلماء ، أرهد عايا ابناء فكونوا
 هكذا هذا هو واجبك » من يدخل في خدمتي يجب أن يفعل ما أمره به ،
 من ليس يطيق أن يفعل ذلك ، أو من يخيئني مشعباً بالافكار الجديدة ،
 فليطلق لسبيله ، وإذا هو لم ينطلق فاني أرسله ! » يستطيعون أن يهمسوا
 ما همس به حاكم جنوى لوالد الشائر الوطني الايطالي (متزيني) بشأن ولده :
 « نحن لا نتحمل الشباب أن يفكروا دون أن يكون لنا علم بموضوع

(١) راجع كتاب لغسطينوس : مدينة الله ، السفر التاسع عشر .

«فكبرهم» • يستطيعون أن يصرحوا بما صرح به شارل العاشر الملك
الاو توفراطي الفرنسي: «افضل أن أنشر الخشب على أن أكون ملكاً من
الطراز الانكليزي»^(١) وبما صرح به رئيس وزرائه ، بولينياك ، الذي تمنى
لو يتمكن من محو جميع انتصارات الثورة الفرنسية الكبرى : « غرضنا
أن نعيد تنظيم المجتمع ، أن نرجع الى الاكلبوس نفوذهم في الدولة ، أن
نخلق ارسوقراطية قوية ونسيجها بالامتيازات » • يستطيعون أن ينطقوا
بما نطق به المطران هورسلي الانكليزي : « لست أدري ما هي علاقة جمهور
الشعب ، في أي بلاد ، بالشرائع سوى أن يطيعوها » •

ويستطيع الرجعيون ، عند الحاجة ، أن ينفذوا عنهم لباسهم المغربي
الغشاش ويبرزوا بحقيقتهم الوحشية ، فيقيموا محاكم التفتيش ويحرقوا
سراذيب التعذيب ، ويسجنوا ويشنقوا ويحرقوا (جيوردانو برونو) ومئات
غيره ، ويستعيزوا من السيد الرجعي الكبير مترنيخ وصفه للثورة :
« بالوحش الفاجر فكيف لا اقتراس النظام الاجتماعي » • الا ان شيئاً واحداً
يبقى مؤكداً • وهو أن الرجعيين لن يستطيعوا تجسيد التاريخ وحشو دماغ
الانسان بدخان الخرافات والاضاليل ، وحقق ضميره بسموم مميتة للبذور
المتقدم فيه ، والخيولة بينه وبين حقوقه الى الابد وإرهابه كالتعجبة •
فالثائرون الاحزاق قادة الانسان وطلبة جنده يقولون لالسياد الرجعيين ،
وملوهم رباطة الجأش والشقة ما قاله برونو لقضاته الذين حكموا باحراقه :
« ربما كنتم تصدرون علي هذا الحكم بخوف أشد مما ألقاه ! »

برغم الرجعيين « ان المبادئ تنمو سرياً إذا هي سقتها دماء الضحايا »
على تعبير مترنيخ ، و « تاريخ العالم ليس شيئاً سوى نمو شعور الحربة » ، على
رأي الفيلسوف ارنست هيغل - شعور الحربة الذي أوقد جمرته في

الانسان ظلم أسياده ، والذي ابدع حملة الثقافة الاحرار السقدماء من اغريق ورومان وعرب وأعلام « عصر الاحياء » ، وكل من حاربوا الجهل من أي امة كانوا وزادوا سيطرة الانسان على الطبيعة وغذوه بغذاء العلم والادب المنيرين .

* * *

٤ - النصر للانسان - هو محفر قبور اسبابه

وهم محفرون قبور بعضهم بعضاً

من منطق التاريخ - لا من المصادفة - ان تمكن الانسان من احراز الانتصارات الجزئية على اسياده في الماضي ، وان سيتمكن من احراز الانتصار الكامل عليهم في المستقبل . من منطق التاريخ ان استطاع الانسان في معارك كثيرة ، خلال العصور ، فرض تعديلاته على الشركة الاستثمارية التي احاطه الاسياد بنطاقها تمهيداً لهدمها وقلع جذورها من تربة الوجود . ذلك لان من منطق التاريخ ان جعل الاسياد اقلية ضئيلة في كل زمان ومكان ، وجعل الانسان الاكثرية الساحقة ، ووضع للانسان المستثمر مصلحة واحدة وغاية واحدة نصب عينه هي : قتل الاستثمار ، وقرّب له صفوفه من بعضها يوماً أكثر من يوم ، ويسر له الاتحاد والاحتشاد وزاده يقظة وبصيرة للنضال الاخير ، بينما جعل لاسياد الاستثمار مصالح متناقضة تزيد تناقضاتها عمقاً على توالي الايام فتدفعهم في شبكة من الارتباك ، وفترق صفوفهم بالاحقاد والاطماع ، وصدع جبهة شركتهم الاستثمارية بمطاحن مستعمر فيما بينهم - خفي صامت وبارز صاخب - حول من يكون السيد على الاسياد ؟!

ان الاسياد ، اعضاء الشركة الاستثمارية ، لا يستطيعون طعم دماء

الانسان ابن الشعب فقط ، ولكن يستطيبتون طعم دماء بعضهم أيضاً ،
برغم ما قد يبدو منهم من مظاهر التوافق بعض الاحيان ! توافق في أصلح
أحواله لا يكون إلا تآمرياً ضد الانسان أو حر كة من حر كاته التحريرية ؛
غير أنه سرعان ما تنجلي طبيعته السطحية وتمزقه الخلافات الناشئة في
داخله بعد أن يكون خدم غرضه أو قبل .

كثيراً ما نجد أسياد الانسان من أي نوع كانوا يتقربون من بعضهم
ويتساومون . كثيراً ما نرى رؤساء الدين مهتفون بما هتف به البطريرك
نسطور للامبراطور ثيودوسيوس : « انقذني أيها الحاكم الجبار ، انقذني
من كل أعداء كنيسة ، وفي مقابل ذلك أعطيك السماء . قف بجانب
لا إخضاع أولئك الذين يخالفون عقائدنا ، ونحن بنورنا نقف بجانبك
لسحق أعدائك ! » كثيراً ما نرى أمثال المطران ابتاتوس يقولون عن
الامبراطرة ما قاله هو عن امبراطوره : « ليس أحد فوقه إلا الله وحده » .
و كثيراً ما نرى الملوك يمجلون رؤساء الدين ، ورؤساء الدين الاشراف ،
والاشراف الملوك ، ورؤساء الدين الملوك والاشراف وهلم جرأً . . . إلا
اننا إذا نظرنا الى أبعد من ذلك نجد هؤلاء الاسياد لا ينفكون يتطاحنون
تطاحنهم المستمر حول من يكون السيد على الاسياد ؟ نجد البابوات
يتشبثون بأن سيادتهم هي العليا ويزعمون بلسان البابا غلاسيوس :
« سلطتان تحكمان هذا العالم : الاكليريكية والملكية ، الاكليريكية
هي السيدة بدون رب ، لأن الكاهن مسؤول أمام الله عن سلوك الجميع
حتى الامبراطرة أنفسهم » ؛ أو يزعمون بلسان غريغوريوس السابع :
« البابا هو الشخص الواحد الذي يقبل قدميه جميع الامراء » ؛
أو يزعمون بلسان انوسنت الثالث : « كما ان الله خالق الكون قد أقام
كوكبين عظيمين في افق السماء : الكوكب الاعظم للتسلط على

النهار والكوكب الاصغر للتسلط على الليل ، فهكذا هو قد أقام
(جلالتهن) في أفق الكنيسة الجامعة : الجلالة العظمى لحكم النهار —
أي الارواح — والجلالة الصغرى لحكم الليل — أي الابدان . هاتان
الجلالتان هما : السلطة البابوية والسلطة الملكية !» .

فنجده الملوكة يابون هذا الزعم ويردون رداً صريحاً على الجلالة
البابوية بما قاله الامبراطور فردريك الاول الالماني للبابا اديان الرابع :
« اننا متسلمون هذه المملوكة الامبراطورية — عن طريق انتخاب
الامراء لنا — من الله وحده الذي برغبة ابنه قد ألقى هذا العالم تحت
سلطة سيفين . فضلا عن ان الرسول بولس يقول : اتق الله . . .
اكرم الملك . بناء على ذلك ، من يزعم اننا نحمل الساج الامبراطوري
انعاماً من البابا يكون عاصياً للنظام الالهى ، ومناقضاً لتعاليم بولس ،
وكذاباً !» .

فترى البابوات يهزون عصا الحرم على رؤوس الملوكة والامبراطورة ،
ونلتقي بالامبراطور الالماني هنري الرابع ، سنة ١٠٧٧ ، منكسراً حافي
القدمين ، ما كُثِّفَ على الشلج ثلاثة أيام في ساحة قصر كانوسا يتوب
من عصيانه الى البابا غريغوريوس السابع الذي قضى بحرمه وهو يحمل
بيده شمعة مضاءة تفتح عليها من لهائه ، وقال : « كما أطفئ هذا الضوء
هكذا أطفئ هنري الرابع !» ثم لا نلبث أن نرى الامبراطور التائب
نفسه يخلع غريغوريوس ويحاول تنصيب بابا من لدنه . ونرى البارونات ،
أشراف الاقطاع الانكليزي ، يغيضون لكثرة ما يقاسمهم الملك حنا
غلة الفلاحين والتجار الصغار بضرائب وتكاليفه المختلفة ، فيشبهون
في وجهه السلاح وينتزعون منه (العهد الكبير) سنة ١٢١٥ في رونميد ،
واضعين حول امتيازاتهم سياجات لا يجوز له أن يتخطاها . ونرى مرة ،

سنة ١٣٧٨ م باباوين في روما وافينيون واحدهما يستنزل لغات السماء على الآخر م ويدعي لنفسه خلافة بطرس الرسول ومفاتيحه م ونرى الراهب لوثيروس يتمرد على سدة روما م ومن ورائه اصراء الاقطاع الالماني الحردون على البابا يدفعونه ويدعمونه م وهكذا الى مالا نهاية له من تشاحن الاسياد وتماخرهم ودسائسهم وفضحهم لبعضهم طمعاً في حصر السيادة بفريق منهم دون فريق م أو بفئة دون فئة من نفس الفريق - مما يؤلف نوعاً من القصص الطويلة المفزعة التي تسميها عجائزنا « قصص الحيات » .

٠٠٠ أجل ليس الانسان هو الذي يحفر قبور أسياده فقط م بل أسياده هم الذين يحفرون قبور بعضهم أيضاً ويساعدونه على حفر قبورهم م ذلك من منطق التاريخ ! الا براطوريات القديمة تحطمت باصطداماتها الدموية مع بعضها ومع سيول جارفة من الهجرات م وبثورات (سبارتا كوسية) من العبيد فيها إبان ضعفها م واقطاعية القرون الوسطى وسيطرة الكنيسة بشكل امبراطوري على الدنيا تلاشتا على أيدي فريق الملوك من الاسياد م وأيدي الطبقة الشعبية الوسطى التجارية المتحركة م الناهضة على أساس مبدأ القومية والديموقراطية والمساهلة في المذاهب الدينية م والملوك الاوتوقراطيون نخبوا دعائم ملكيتهم المطلقة بكثرة نزاعاتهم ونفقاتهم ولفظوا أنفاسهم أو ظناً أو رؤوسهم أمام شعوبهم - امام الانسان الواعي المطالب بحقوقه المغضوبة . ولكن هذا الحديث م حديث الحساب بين الملوك الاوتوقراطيين وشعوبهم م يستدعي فضلاً جديداً م مع رجعة الى الوراء وغوصة سرية في نهر التاريخ لجس التيار الاقتصادي الذي يتجه التاريخ تبعاً لاجتياحه .

الانسان بحقوق سياسية ومدنية

عصر الديموقراطية الرأسمالية والمساهلة

١- الملوك « بنعمة الله » ونهج تفكيرهم

الملوك الاوتوقراطيون ، « الملوك بنعمة الله » ، وجهها لوجه أمام شعوبهم !
 هذا هو المشهد التاريخي الذي يبرز لعياننا في مفتتح العصور الحديثة .
 أما الملوك فنهج تفكيرهم واضح اكتسبته عقليتهم ورسخ فيها
 خلال أزمنة عريقة في القدم . ويمكن تلخيصه في نقاط أربع :

- * الملكية نظام مدير من السماء
- * الملكية حق سلالة معينة تنتقل من المالك الى الوارث الاكبر
- * الملوك الذين لهم هذا الحق الوراثي المقدس مسؤولون عن سلوكهم
 في عروش الحكم أمام الله فقط .
- * واجب الرعية الطاعة التامة ، بدون سؤالات في جميع الاحوال .

(جيمز) الأول ملك انكلترا يقول : « جدال الانسان فيما يمكن
 أن يفعله الله إلحاد وتجديف . جدال المحكوم فيما يقدر أن يفعله
 الملك — قوله إن الملك لا يستطيع أن يفعل هذا وذاك — صلابة
 رأس ومجلبة للحقت الكبير » . والملك الشمس لويس الرابع عشر

سيد فرسايل يقول باختصار: «أنا الدولة» ثم يكف نفسه شيئاً من الشرح فيزعم: «ان الذي وهب ملوكاً للعالم قد أرادهم أن يكونوا مبعجين بصفاتهم مثليه ، واحتفظ لنفسه فقط بحق الحكم على أعمالهم ، ومن يولد فرداً من الرعية فيجب عليه أن يطيع بدون تدمير . تلك هي مشيئته !» .

٢ - انحلال الرقراطية ونهضة الطبقة الوسطى المتحركة

وأما الشعب فله أسلوب من التفكير مناقض لهذا الأسلوب الاوتوقراطي . جوهره : ان الشعب هو مصدر السلطة وان له الحق إن لم ينفرد بها كلياً أن يشترك فيها مع ملوكه على الأقل ، وأن يقيد من غلواء حكمهم المطاق .

... عندما نتكلم عن الشعب في كفاحه ضد ملوكه ، في هذه المرحلة التي نحن بصدها من التاريخ ، ينبغي أن نتوقف قليلاً لنعني عناية خاصة بطبقة ناشئة من الشعب آنذاك ، صاعدة في السلم الاجتماعي ، وعليها مظاهر الصحة والنشاط ، تشتد شوكتها وتحتل مركز القيادة على رأس الشعب المكافح يوماً أكثر من يوم . تلك هي الطبقة الوسطى المتحركة — الطبقة الرأسمالية أو البورجوازية إذا شئت فيما بعد . يمكن رد تاريخ هذه الطبقة إلى القرون الوسطى ، إلى تجار المدن الكبيرة الذين أثروا وقوا مدنها ووطدوا استقلالها ؛ بينما البابوات والامبراطرة والاشراف آخذون بخناق بعضهم .

كانت مدن القرون الوسطى مندججة في النظام الاقطاعي الشامل للدنيا حولها . كانت هذه المدن تنشأ حول قصور الاشراف الحصينة والاديرة القائمة جميعاً بكهنياء على رؤوس الآكام ، المشرفة

بسلطان علي ما يجاورها من قرى الزراعة الاقطاعية تحرس أجساد الفلاحين الاقنان^(١) بينما الاديرة السقرية من القصور تسهر على أرواحهم . وكان سكان هذه المدن من أصل الفلاحين الاقنان ، منزلتهم لا تختلف كثيراً عن منزلة الفلاحين الاقنان أنفسهم : يفرض عليهم المقصر أو الدير المجاور لهم ضرائب الباهظة ويعاملهم على هواه .

أخذ هؤلاء الاقنان المدينون - إذا صدق التعبير - يقومون بشيء من التجارة على أسلوب المقايضة . يحملون بضائع بسيطة على ظهورهم في أنحاء ضيقة ، والمستهلكون الرئيسيون لبضائعهم قصور الاشراف وأديرة الرهبان على الآكام .

برغم الضرائب الباهظة ، الناهية لا تعاب هؤلاء التجار الصغار ، كانت تجارتهم تنمو . وكانت لتوسع الانحاء الضيقة التي يتنقلون فيها ببضائعهم . والأشراف والرهبان راضون عنهم حامون لهم - أولاً - لأنهم قد أخذوا ثمن رضاهم وحمايتهم غالباً - وثانياً - لأن هؤلاء التجار يحملون لهم بضائع طريفة تعودوها وأصبحوا لا يطيعون الاستغناء عنها .

جنباً الى جنب مع نمو التجارة وتوسعها كانت تنمو المدن نفسها ، وتنمو بسائط الصناعة بحيث أصبح التجار صناعاتاً أيضاً . وظهرت أيضاً طلائع النقود ، إذ ان التجارة لما توسعت الى أنحاء متباعدة وكبرت مقادير البضائع أخذت تستحيل على التجار طريقة المقايضة في جميع معاملاتهم ، واتفقوا على مقياس يجرون معاملاتهم على أساسه . وهكذا صار من غير النادر أن ترى في أيديهم قطعاً براقعة من الذهب يتداولونها وأن ترى في المدن هنا وهناك - خلف الموائد الخشبية - أشخاصاً

(١) الاقنان جمع قن ، وهو الفلاح مربوط بالارض يباع ويشترى معها « Serf »

من يهود وسواهم أمامهم القطع الذهبية يقرضونها ويعيشون بفوائدها (طلائع البنوك الحديثة) وسرعان ما أصبحت هذه القطع الذهبية في يد الطبقة الجديدة الناهضة ، التي تجد في حفر القبر لطغيات أشراف الاقطاع الديني والكنسي ، قوة وسوداً ليس بعدهما قوة وسودد . حتى كتب كولومبس : « الذهب شيء عجيب ، من يملكه يصبح سيد ما يحتاج اليه ، بالذهب يمكن حتى فتح الطريق الى الفردوس » ، وحتى هتف الشاعر متغنياً : « يا ذهب ! يا أصفر يا متلألئ يا ثمين يا ذهب ! قليل من هذا يجعل الأسود أبيض ، القبيح جميلاً ، الظلمة حقاً ، الدنيء شريفاً ، الشيخ فتى ، الجبان جسوراً . ما هذا يا آلهة ! ألا تدرون ؟ هذا سيدسحب كهنتكم وحشمكم من قريكم ، سيخطف محلات الرجال السماء من تحت رؤوسهم . هذا العبد الاصفر سيعقد ويفكك الاديان ، يبارك الملاعين ، يجعل البرص الابيض معبوداً ، ينصب اللصوص ويسوق لهم لقباً وخضوعاً وإعجاباً ، ويجلسهم شيوخاً على الكراسي . هذا هو الذي يجعل الارملة المنطفئة تزوج ثانية ! » (١) .

اشتدت شوكة المدن — مدن إيطاليا : فلورنسا وجنوى وفينيسيا قبل غيرها — وامتدت مصالحها التجارية الى أن تجاوزت بلاداً الى بلاد ، وتخطت الغرب الى الشرق . أما امراء الاقطاع فلبثوا يقرضون الضرائب على التجار حيث يستطيعون . وحيث يشعرون بعجزهم عن فرض سلطتهم ، يؤلفون عصابات اللصوص لقطع الطرق على قوافل التجارة براً ، وقد لا يتركون سفن البحر تنجو من شرهم فيلاحقونها بأشكال قرصان .

على أن التاريخ كان قضاؤه ظاهراً ومبرماً ضد امراء الاقطاع (١) منسوب الى شكسبير .

بجانب المدن ، لأنها قوة نقدية وهم قوة رجعية . الحوادث إثر الحوادث كانت تجري مؤدية الى إضعاف امراء الاقطاع ونقوبة المدن . وإذا لم نذكر شيئاً عن هذه الحوادث مفصلاً ، فلا بد لنا من ذكر لحظة عن الحروب الصليبية على الأقل . . .

دعنا من قشور الاكاذيب والتفسيرات الخاطئة التي احاطت بالحروب الصليبية ، وتولدت من العصبية الممقونة ، وولدت العصبية الممقونة . الحروب الصليبية في قشرتها السطحية الرقيقة يمكن ان تسمى دينية فقط ؛ ولكنها في حقيقة أمرها حروب اقتصادية في سبيل الفتح التجاري واستيراد البضائع الشرقية الفاخرة . وان يمكن للاشراف والمشردين والمعدمين وطلاب الغزو من كل نوع شركة فيها ، فان اشد مثيرها هي مدن القرون الوسطى التي نتحدث عنها آنياً وعن امتداد مصالحها التجارية .

كثيرون من الاشراف قضوا نحبهم في هذه الحروب . والذين سلموا رجعوا ليجدوا أنفسهم مدينين أو مقيدين بعهد من العهود . لمن ؟ ولماذا ؟

سيدنا الاقطاعي قبل ان يتحدر من قصره الحصين على الامة ، وينطلق الى الشرق الرومانيقي حيث يرن فروسيته بذبج الاطفال والنساء ، ويفسق ويشرب الخمر باسم إنقاذ قبر المسيح ؛ كان قد اقترب كثيراً او قليلاً من القطع الذهبية لاسد نفقته ونفقة اصحابه . وكان شخص من الجالسين خلف الموائد الخشبية قد قرضه إياها ، أو عضو نقابة حرفية من الصناع ، أو تاجر الخ . . . واحد من الطبقة الوسطى المتمولة المتجارية . أياً كان الشخص القارض فلا بد له من أن ينتزع من سيده الاقطاعي فائدة أو رهناً لجزء من ارضه ، أو عهداً بحق صيد

السماك في البركة أو الساقية المجاورة لقصر فخامته .
وهكذا أصبح الاقطاعيون ينحطون في السلم الاجتماعي ، ويتخلون
عن سيادتهم المطلقة بجاذب اقتصادي لا قبل لهم بدفعه . عارك
الاقطاعيون عراكاً عنيفاً قبل ان تخلوا عن سيادتهم : حاولوا أن يأكلوا
القطع الذهبية التي استدانوها ، أن لا يؤدوا فوائضها ، ان ينكثوا
عهودهم مع دائنيهم ، ان يبقوا المدن خاضعة بالقوة الغاشمة لضرائهم
وحراسة قصورهم وحراسة الاديرة على المضارب . غير انهم فشلوا .
لبثوا يحتاجون الى القطع الذهبية من المدن ، والمدن تنزع منهم
لقاءها اراضيهم وميثاقاً ، بحق من الحقوق ، اثر ميثاق : تارة حق انشاء
بجالس بلدية والاستقلال بادارة شؤونها ، وطوراً حق تشييد بناية
عامة في قلب المدينة ذات برج يميز فيه السكان الموائيق التي
اتزعوها من السيد الاقطاعي ، ويضعون في رأس البرج حارساً ينذرهم
بكل خطر دام - خصوصاً خطر هجوم مفاجئ من السيد الاقطاعي
وحاشيته المساحة اذا هو حاول إعادة سيطرته بالقوة . وأخذت المدن
بسبب اضطرارها المتزايد الى الايدي العاملة ، تفتح أبوابها للفلاحين
الافئان الناشزين عن امرائهم وكرائيجهم ، وانشأت تعاون الملوك على
محق استقلال الامراء باقطاعاتهم ، ولو استبد الملوك بالسلطة موقفاً
وانقلبوا طغاة او توراتيين ، وذلك رغبة في بناء دولة مركزة توطن
البلاد لحسن سير التجارة - حتى تمزقت سيادة الامراء اشلاء ورأوا
قصورهم الحصينة تتطاير غباراً أمام الاسلحة النارية المخترعة حديثاً التي
قضت على تفوقهم الحربي ومناعة قصورهم في رؤوس التلال العالية ،
وحتى أصبحت المدن وطبقها الوسطي المتمولة التجارية انشط طبقات
المجتمع وطليعته التحريرية ، ضد اتوقراطية الملوك انفسهم ...

٣ - العراق بنسب بين الملوك والوثوق الطيين

والطبقة الوسطى المتحولة

ان الملوك بعد ان خضدوا شوكة الاقطاعيين بقوة الشعب وحصلوا زمام السلطة في أيديهم لم يسلكوا سلوكاً منصفاً مع الشعب . بل هم على العكس شيدوا القصور الفخمة وجذبوا اليها الامراء الاقطاعيين اعداءهم بالألمس ، يعززون بهم سلطانهم . وحشدوا حولهم رؤساء الدين يستعينون بهم على ترسيخ دعائم عروشهم . كل ذلك احتواء من الشعب وخوفاً من ان يفرض ارادته عليهم .

كان الشعب - طبقة المدن المتحولة على الاخص - يبدو فريسة سميكة مغربة للملوك المتقابلين في أفانين الترف ، المحتاجين الى نفقات لا تنقطع من اجل ترفهم وحروبهم . كانت القطع الذهبية البراقة تبهر ابصار الملوك ويسيل لها لعابهم . ولم يكونوا باديء بدء اقوياء ، بسبب توزع السلطة بينهم وبين امراء الاقطاع واسياد الكهنوت ، ليستطيعوا الاستيلاء على هذه القطع الذهبية بغير موافقة الشعب . فكانوا يدعون الشعب - الطبقة المتحولة منه - الى اجتماعات نقاش في شؤون الدولة لم يكن يحضرها من قبل الا الاشراف والاحبار . وهذه الاجتماعات هي نواة البرلمانات الحديثة التي ما زالت نتقوى فيها الطبقة الوسطى المتحولة حتى استولت عليها اخيراً وجعلتها الاداة التي انتصرت بها على سيادة الملوك والاشراف ورؤساء الدين .

الا ان الملوك لما استقروا في عروش الحكم وشعروا بثقة من انفسهم ،

لم يلبثوا أن حاولوا ابتزاز السقطع الذهبية من أيدي الشعب — كما يشاؤون — بالضرائب الثقيلة وهم متسلحون بسلاح «حق الملوك الآلهي» ، سلاح الاوتوقراطية .

هنا لم يكن بد من نشوب العراك بين الملوك وشعوبهم ومن أن تهوي الشعوب بمطارقها الصلبة على أم رأس الاوتوقراطية وحق الملوك الآلهي .

ان أول ضربة للملوك الاوتوقراطيين يعود شرفها الى شعب الاراضي المنخفضة^(١) فانهم ، في سنة ١٥٨١ ، عقدوا اجتماعا لبرلمانهم المؤلف من ممثلي طبقة المدن الوسطى ، ومن رؤساء الدين والاشراف . فطرد ممثلو المدن رؤساء الدين والاشراف ، وخلعوا ملكهم الشرعي فيليب الثاني الاسباني ، وأعلنوا استقلالهم في شكل «جمهورية الاراضي السبع المنخفضة» وجعلوا لهم مبرراً نظرياً ، مقابل نظرية الحق الآلهي ، أشبه بما يلي : ان الملك نقض ميثاقه ، فالملك يخرج من وظيفته كأني خادم غير أمين . . .

جن جنون فيليب وهاج فيه عرق البطش ، وهدد ونفذ تهديده الى أقصى ما قدر في حرب وحشية ضد الاراضي المنخفضة وشعبها الصغير الباسل . ولكنه انقلب على أعقابهِ خائباً خاسراً ، ونمت البذرة التي زرعها الطبقة الهولندية الوسطى نمواً هائلاً ، ونمت لها اصوات في سائر وروبا زرعها هناك الطبقة الوسطى المتمولة أيضاً ، وقصت رقبة ملكين كبيرين : شارل الاول الانكليزي ، ولويس السادس عشر الفرنسي .

اتخذ نمو هذه البذرة أشكالاً نظرية مختلفة ، معتدلة ومتطرفة ، ولكنها لبثت واحدة في جوهرها . ويمكن إطلاق اسم «نظرية الميثاق» عليها ،

وهي السلاح الذي تسلمت به الطبقة الوسطى الباسطة يدها للاستيلاء على دفة الدولة ، أو للاشتراك في ادارة دفتها على الاقل .

وهذه النظرية ، ككل الظاهرات الفكرية ، وإن تبلورت بشكائها النهائي في المرحلة التاريخية التي نتحدث عنها ، فهي أشبه ببركة تسربت اليها دفقات فكرية جاءت قبلها خلال العصور (دفقات من الفلاسفة الرواقيين ، ومن هيجو وكروشيوس الهولانديي الخ . واشهر دعائها هوبز ولوك الانكليزيان ، وروسو الفرنسي ؛ وأن يكن هوبز تلاعب بها وعوجها لتبرير اوتوقراطية الملوك) وأهم ما تنبني عليه هذه النظرية النقاط التالية :
* اتى على الانسان دور غارق في أبعاد التاريخ كان عائشاً فيه على الفطرة بحالة وحقوق طبيعية (بعض المفكرين يرون في هذه الحالة مثلاً أعلى كروسو ، وبعضهم يقبحونها كهوبز) .

* مع تطور الحياة الاجتماعية وتعقدها ألغى الناس ، بالاتفاق الصادر عن العقل ، هذه الحالة الطبيعية ، ووكلا سياسة امورهم الى سلطة .
فالسلطة حسب هذه النظرية مصدرها الناس وعقلهم ، وليس مصدرها السماء كما يزعم الملوك الاوتوقراطيون .

* بين السلطة والناس عقد متفاهم عليه هو وليد اتفاقهم ، يفصل الحقوق من الواجبات ؛ اذا نقضت السلطة هذا العقد فانها تفقد صلاحيتها في أن تبقى سلطة .

* * *

لا بد لنا ونحن في غمار حديثنا السريع ، حديث نهضة الطبقة الوسطى وثوراتها على ملوكها الاوتوقراطيين وتثبيت دساتيرها وسيطرة برلماناتها - من أن نلتمس الى ثلاث ثورات عظمى قادتها الطبقة الوسطى ،

لانها تعتبر الثورات الديمقراطية الكلاسيكية وهي : الانكليزية ،
والاميركية ، والفرنسية الكبرى .

٤ - الثورة الانكليزية البرجوازية

أما الثورة الانكليزية فظهرت طلائعها في عريضة الحقوق التي
رفعها البرلمان البريطاني الى الملك شارل الاول سنة ١٦٢٨ . وكان
شارل قد فرض على الشعب قرضاً إجبارياً وسجن من أبوا الدفع .
وفي هذه العريضة ينبه البرلمان الملك الى انه يغتصب من الشعب
اموالا غير مشروعة ، ويسلب امانهم وطأ نيتهم على أموالهم بعملائه
الغلاظ . ثم يبسط البرلمان امام الملك ثلاثة مطالب اساسية :

أ - من الان فصاعداً ، لا يكون على انسان أن يؤدي عطاءً أو قرضاً أو
إنعاماً أو ضريبة أو أي تسكيف من نوع هذه التكاليف بدون موافقة
البرلمان .

ب - لا يسجن انسان حر او يجري عليه عقاب إلا بحسب قوانين الدولة
ونظمها كما هو منصوص في (العهد الكبير) ^(١) .

ج - لا يفرض على الشعب إسكان الجنود مهما كانت الدواعي .
باع شارل الاول هذه المطالب آتياً وان كانت شائكة على كبريائه ،
واستمرت المكافحة بينه وبين البرلمان بشكل ترقب للقرص . ثم آتس
من نفسه قوة لحل البرلمان العاصي ، فحله في السنة الثانية ١٦٢٩ ،

(١) العهد الكبير (Magna Charta) هو العهد الذي عقده الاشراف الانكليز
بينهم وبين الملك حنا سنة ١٢١٥ لخدمة مصالح امراء الاقطاع . الا ان فيه مبادئ
حقوقية عامة استطاعت البرجوازية الانكليزية ان تتمسك بها للدفاع عن مصلحتها .

واستغنى عنه وعاد سيرته الاولى يبتز من الشعب أمواله . من جملة ذلك : « أموال المراكب » ، وهي فريضة حاول جمعها من كل الاهالي لينبي بها اسطولاً خاصاً به . وكانت العادة أن تقدم الموانئ الاسطول عند الحاجة اليه وان لا يتكلف ذلك إلا سكان الشواطئ ، فتمرد واحد من الاهالي واى دفع المقسوط عليه من فريضة اموال المراكب : عشرين شلماً . وقد اكسبه تمزده خلود اسمه في التاريخ وهو « جون همبدن » . حوكم همبدن امام محكمة الملك وحكم عليه ، ولكن باكثرية قليلة من القضاة - مما دل على نفسية اشمئزاز منتشرة من اعمال شارل . وزاد الطين بلة عناد ، ديني القشرة ، حاول به شارل توطيد كنيسة للدولة ، الزامية للامة جميعاً ، تدعوله طبعاً وتكون وتداً من أوتاد عرشه بين الجماهير . ولكن ذلك ساق النفوس الى التمرد وفجر ثورة في اسكوتلاندا البرسيميتيرية .

لم يكن شارل يستطيع أن يستغنى عن البرلمان طويلاً وهو امام ثورة الاسكوتلانديين مضطراً الى قمعها ، ومضطراً الى المال . ألقى يده على مركب من مراكب شركة الهند الشرقية - تلك الخزنة الاستعمارية التي كانت قد بدأت البورجوازية الانكليزية تسيرها الى قلب الهند والشرق - وباع المركب ليحصل على شيء من المال ، الا ان ذلك لم يكن ذا جدوى عظيمة ، فدعا أخيراً ، سنة ١٦٤٠ ، البرلمان المعروف « بالطويل » الى الانعقاد .

صرف البرلمان نظره عن الاسكوتلانديين وثورتهم وبدأ أعماله بالتصويت على قانون الثلاث سنوات ، الذي منح للبرلمان حق الانعقاد مرة على الاقل كل ثلاث سنوات ، وان لم يدعه الملك . ووقع البرلمان ايضاً عريضة قاسية للهجة تندد فيها ما اقترفه شارل من أخطاء ،

وهي تعرف بعريضة «التتويج الكبير» وفيها يطلب أن يكون وزراء الملك مسؤولين أمام البرلمان . وطبع هذه العريضة ونشر منها النسخ العديدة في طول البلاد وعرضها .

كان هذا أشد مما يستطيع شارل هضمه . فرد بأن عزم القبض على بعض أعضاء البرلمان تخويفاً وتهويلاً . فكان عزمه هذا نذيراً بأن الاصطدام المسلح بين الملك والبرلمان واقع لا بد منه ، ولم تلبث أن نشبت حرب اهلية طويلة بدأت سنة ١٦٤٢ بين جنود الملك الارستوقراطيين الطوال الشعور وسائر مناصريه ، وبين جنود البرلمان الشعبيين الخليقي الشعور وعلى رأسهم كرومويل . وتمت الغلبة أخيراً للبرلمان ولكرومويل ، وقبض على شارل وطرده من البرلمان . الأعضاء الذين كانوا يدعون الى تفاهم مع العرش ، وحوكم الملك وتدرج رأسه تحت فأس الثورة انظاراً سنة ١٦٤٩ م .

قضت انكثرا فترة تحت حكم كرومويل وهي بلا ملوك . ثم عاد اليها الملوك ، ومنهم جيمز الثاني الذي حاول ان يبعث شيئاً من الاوتوقراطية الاولى ، الفريدة المأسوف عليها كثيراً (منه طبعاً لا من غيره) ، ولكنه اضطر الى الهرب ، سنة ١٦٨٨ ، وجاء مكانه من يفهم حدوده ويلزمها . وأصدر البرلمان توكيداً لسيادته من جديد ، عريضة كررت سرد حقوق الامة الانكليزية الرئيسية والشروط التي يتقيد بها العرش ، وهي نسخة قريبة من عريضة الحقوق الاولى التي وجهها البرلمان الى شارل الاول .

٥ - الثورة الاميركية واعلان الاستقلال

اما الثورة الاميركية فهي ليست ثورة صرفاً من شعب ضد ملك ، ولم تكن هي قضية داخلية فحسب ، وإنما لها صفة قومية ضد استعمارية . إلا انها مع ذلك تبقى ثورة شعب ضد سلطة تريد أن تكون اوتوقراطية ، وفي الحالة هذه محسوبة في عداد الثورات الديمقراطية التي نبغها .

سرعان ما استقر المهاجرون الذين دفعهم الاضطهاد من انكلترا « في انكلترا الجديدة » عبر المحيط الاطلنطيكي ، وأخذ يتعزز عددهم بمهاجرين جدد من جميع الانحاء ، ويكتشفوا غني الارض الجديدة التي هم عليها ، ويشرعوا في استغلالها حتى شاءت انكلترا أن تقاسمهم غنى أرضهم الجديدة وغلة أتعابهم بحلقات من الضرائب الجائرة .

بدأت حلقات هذه الضرائب بضريبة التمتع ، سنة ١٧٦٥ ، التي فرضت على المستوطنين في أرضهم الجديدة أن يدفعوا ثمن تمغة يلصقونها على كثير من عقود معاملاتهم لتصبح نافذة معتبرة عند الحكومة . فاغتاظ الشعب واجتمع ممثلون له في نيويورك ، سنة ١٧٦٥ ، أعلنوا قانون التمتع : « اتجاهاً واضحاً للانتقاص من حقوقهم وحراباتهم » .

غير أن الحكومة الانكليزية مضت في غلوها الاستبدادي الاستعماري ، وطبقت قوانينها الجائرة في الملاحاة . وهي قوانين قصدها بريطانيا في البداة ضد المراكب الهولندية ، مدفوعة بالحسد التجاري . ثم استعملتها وأضافت اليها حواشي ضد الشعب الاميركي . مثلاً — كان أحد هذه القوانين يقضي بأن جميع المنتجات الاسيوية والافريقية

والاميركية لا يجوز أن تستورد إلى انكلترا أو مستعمراتها إلا على
مراكب انكليزية فقط . وكان قانون ثانٍ يقضي بأن المنتجات
الاوروبية يجب أن تستورد إلى المستعمرات بواسطة عملاء انكليز ،
وعلى مراكب مصنوعة في انكلترا أو في المستعمرات . وكان قانون
ثالث يقضي ان المسموح ببيعه للاجانب من منتجات المستعمرات يجب
أن يصدر على مراكب انكليزية . فضلاً عن ان كثيراً من منتجات
المستعمرات الهامة كان لا يسمح ببيعها إلا للانكليز . وكان ممنوعاً
على شعب المستعمرات أن يتعاطوا صناعات من شأنها أن تزاحم
صناعات انكليزية من نوعها ، كصناعة الفولاذ مثلاً . وبكلمة
مختصرة - كانت هذه القوانين تمنح امتياز احتكار شديد للتجار
الانكليز ومراكبهم ، ولأصحاب الصناعة الانكليزية .

ولكن الشعب الاميركي وجد من الضروري لحياته أن لا يراعي
هذه القيود ، فأهمل وجودها واستمر في نموه الاقتصادي ، فقابلت
منه السلطة الانكليزية ذلك بضرائب فوق ضرائب . تسحب نوعاً
منها لتستعويض عنه بنوع ، ونقيم جنوداً في المستعمرات لتسهر على
عبوديتها ، حتى كانت ضريبة الشاي - البقشة التي قصمت ظهر الجمل
كما يقولون

في سنة ١٧٧٣ صعد بعض الشباب الهائج في مدينة بوسطن إلى
مراكب من مراكب شركة الهند الشرقية الانكليزية محملاً شايًا ،
وقذفوا بحمولته في البحر . وانتشر على الاثر الشعار الثوري في
البلاد ، شعار : « لا ضرائب بلا تمثيل ! » . فردت السلطة البريطانية
بتدابير دلت على نية قمعهم بالقوة المسلحة . فانعقد مؤتمر من
المستعمرات في فيلادلفيا سنة ١٧٧٤ ، قرر أن تقطع كل تجارة مع

انكثرتا ريثا ترفع جميع قيودها وتعوض عن إساءاتها الماضية وتعطي
برهاناً على حسن نيتها . ولكن نفسية انكثرتا كانت بعيدة عن كل
ذلك - فشبت الثورة المسلحة سنة ١٧٧٥ بـ أن هاجمت ميليشيا الشعب
الثورية بـ بقيادة وشنطون ، الجنود الانكليزية في ليكز نفقون وقهرتها ،
وانعقد مؤتمر ثان من ممثلي المستعمرات مشبع بروح القنوط من كل
تفاهم مع بريطانيا ، وقرر وجوب الاستعداد للحرب ، وأذاع في ٢
تموز سنة ١٧٧٦ « اعلان الاستقلال » الشهير الذي يستحق وقفة
خاصة عنده لانه صفحة مجيدة من كتاب الحرية .

تقع هذه الوثيقة التاريخية في قسمين رئيسيين :

القسم الاول - يحتوي على الاسس النظرية التي دعم بها الثائرون
قضيتهم . ويصف الثائرون هذه الاسس بأنها « حقائق واضحة من
ذاتها » . وهي تجري على هذا النحو :

* يخلق جميع الناس متساوين ، ويهب لهم خالقهم حقوقاً لا يمكن
فصلها عنهم : حق الحياة ، الحرية ، السعي وراء السعادة .
* من أجل حفظ هذه الحقوق تقوم الحكومات مستمدة سلطتها
العادلة من رضى المحكومين .

* أي شكل من أشكال الحكومة يصبح متافاً لهذه الحقوق ،
فالشعوب لهم حق تبديل أو الغاء هذا الشكل من الحكومة ، وإقامة
شكل آخر جدير بأن يكفل للشعب سلامته وسعادته .
(هذه أفكار أكثرها مستمد من لوك ، وقد تبينناها في نظرية
الميثاق) .

والقسم الثاني من « اعلان الاستقلال » فيه لائحة طويلة من
شكاوى المستعمرات ضد ملك انكثرتا ، جورج الثالث . ولا حاجة

بنا إلى سرد هذه الشكاوى ، فقد ألمعنا بالاسباب التي حركت الشعب
الاميركي الى الثورة قبلاً .

ويبلور إعلان الاستقلال روحه التي تسيل خلال سطوره بهاتين
العبارتين : « الملك لم يعد صالحاً لان يكون حاكم شعب حر » .
و « هذه الولايات المتحدة هي حرة ومن حقها أن تكون كذلك ! » .
خاتمة قصة حرب الاستحزr الاميركية معروفة . استمرت هذه
الحرب حتى سنة ١٧٨٣ ؛ وفازت فيها الولايات المتحدة ، مع مساعدة
لا يستهان بها من فرنسا ، منافسة انكلترا وعدوئها اللدود واعترفت
انكلترا باستقلال الولايات المتحدة وانفصالها نهائياً عنها .

الثورة الفرنسية وحقوق الانسان

أما الثورة الفرنسية الكبرى فان رياحها كانت ولا تزال أشد
هذه الثورات عصفاً وأبعدها مدى في الهبوب وأعمقها تأثيراً .
كانت فرنسا في القرن الثامن عشر ترزح تحت أعباء قاصمة للظهر
من الملكية المطلقة وامتيازات الاشراف ورؤساء الدين . وحين
يقول الفرنسي « النظام القديم » ^(١) فانه يعني بهذا الاصطلاح مظالم ،
كان يتألم منها جداً : الملكية المطلقة ، السجن بغير محاكمة ، الضرائب
الجائرة ، الرقابة الصارمة على الطباعة والنشر والكلام والاجتماع ،
وتكاليف باقية نسلاً بغيرضاً من صلب العصر الاقطاعي المنحل .
تجسد اتوقراطية الملك الفرنسي ، قبل الثورة ، بتلك الكلمات

المتينة التي تجعله يرجح الخير الحقيقي على الخير الظاهر ، والمنفعة المستقبلية على المنفعة الحاضرة . فإذا منحت الرجال العاطلين من المال حقوقاً سياسية بلا قيد وشرط ، وأصبح هؤلاء مقاعد في المجالس الاشتراكية فانهم يحدثون اضطرابات كثيرة من دون أن يخشوا عاقبتها ؛ وإنهم لضرائب مشؤومة على التجارة والصناعة . فبلاد يحكمها أرباب الثروات لا تلبث أن تنهقر الى الحالة الوحشية عندما يقبض على زمامها اناس لا يملكون شروى نقيراً .»

وبلاحظ المطالع لأخبار الدساتير الفرنسية مثلاً تمسك البورجوازية العنيد بقصر حق الانتخاب عليها من أقوال لكبار الثائرين ، هي أشبه باحتجاجات علي هذا العنت من البورجوازية . لنأخذ مثلاً قول (روبسييار) في الجمعية التأسيسية ٢٢٦ تشرين الاول سنة ١٧٨٩ :

« ان لآبناء الوطن جميعهم ملء الحق بأن يشتركوا في انتخاب الممثلين . ولا شيء . مثل ذلك يلائم (اعلان الحقوق) الذي نشرتموه وقلتم فيه بوجوب إبطال كل امتياز وتفاوت واستثناء . يصرح الدستور بأن الامة هي موئل السيادة ، وقد عني بالامة أبناءها كلهم . فلهذا يكون لكل واحد منهم حظ في وضع القوانين ، وإلا لم يكونوا متساوين في الحقوق .»

ولأخذ مثلاً آخر قول الاب (سييه) في الجمعية التأسيسية الفرنسية سنة ١٧٨٩ :

« قلما تشبه شعوب اوروبه الحديثة شعوب القرون القديمة . ففي هذه الايام لا يبالي بغير التجارة والزراعة والصناعة . وان الشوق الى

الثروات يجعل دول اوروبة كناية عن مصانع واسعة على ما يظهر . وفي هذه المصانع الكبيرة يفكر في الانتاج والاستهلاك أكثر مما في السعادة ، ولذلك ترانا مرغمين أن لا نرى في سواد الناس سوى آلات للعمل . ومع ذلك فانتم لا تستطيعون أن تحرّموا هذه الجموع غير المتعلمة ، المنهمكة في الشغل ، صفة المواطنين والتمتع بالحقوق الوطنية . والعلة هي أنها لما كانت مكرهة على طاعة القانون وجب أن تشترك في سنه .

ولناخذ لنا مثلاً ثالثاً تصرّح (ماراه) عندما أبت البورجوازية الفرنسية منح حق الانتخاب إلا لأولئك الذين عدتهم مواطنين عاملين - أي : يدفعون قدرّاً ما من الضرائب ، فحزمت بذلك حوالى ثلاثة ملايين من الرجال وحدهم استطاعة التصويت . قال (ماراه) :

« حتى أرى الآن أن وضع الامور يلائم تماماً مصالح الاغنياء والداسسين . يا شيوخ المجلس ! لقد كان مفروضاً فيكم أن تعنوا عناية خاصة بتأمين حق متساوٍ لكل المواطنين كي يتمتعوا بحريات المجتمع . أنتم في هذه الدقيقة قد اعترفت ان جميع الناس المتساوين في نظر الطبيعة ينبغي أن يفسح لهم المجال بدون أقل تمييز ليشغلوا المراكز التي يصلحون لها . والان انكم لتتأدون حتى تراكم تعتبرونا غير صالحين لتعيين من يشغل تلك المراكز ! ومن يدري ؟ لعلمكم أخيراً تحرّمونا لقب مواطن . وهكذا فإن إعلانكم الشهير عن حقوق الانسان لم يكن إلا ملهاة تافهة لتسليّة المجاذيب ما زلتم تتشون أن تغيظوهم ، وليست النتيجة في النهاية إلا تسليم جميع الامتيازات - لأيدي الاغنياء - وإسباغ مفاخر النظام الجديد عليهم . وإذن فالثورة العظيمة لم تكن إلا لمنفعة طلاب الوصول الى مآربهم ! »

والواقع أن البورجوازية استطاعت حرمان جماهير الامة الكادحة المجردة من الملكية الخاصة حق الانتخاب في بلاد كثيرة ، ومدة أوقات طويلة ، حتى اكتسبت هذه الجماهير حق الانتخاب بنضال قاسٍ عنيف كلفها هرق الدماء الغزيرة .

والى هذه الاثرة الشديدة في نفس البورجوازية ، الى حب جعل ديموقراطيتها منحصرة في ذاتها إذا كان لا بد من ديموقراطية ، يشير رئيس الولايات المتحدة فرنكلين روزفلت في إحدى خطبه الاخيرة :

« في طليعة القرن التاسع عشر كانت تجري الخصومة المستمرة بين أولئك الذين ، كاندرية جاكسون ، يؤمنون بديموقراطية يسيرها أهل البلاد لأهل البلاد جميعاً ، وأولئك الذين ، كهدريه بنوك الولايات المتحدة وأصدقائهم أعضاء مجلس الشيوخ الاميري ، يؤمنون بحكومة يديرها الى الابد جوقة من البشر قائمون على رأس السلم الى الابد ! .. »

إذن ، فتحجب لا تنهجم على البورجوازية إذا وصفناها بالانانية ، يجب تنصيب ديكتاتوريتها المطلقة على المجتمع ، بعد أن قبضت على مقاليد الحكومات . نحن لا نعلم البورجوازية إذا قلنا إنها رمت الى تضخيم ثروتها بقطع النظر عن سعادة المجتمع . فهذا نظام إنتاجها واضح صريح في إهماله سعادة المجتمع إهمالاً تاماً ، وسعيه وراء التوسع والربح . وإذا كنا في شك من هذه الحقيقة ، فما علينا الا أن نلقي نظرة على ميزات نظام الانتاج الرأسمالي :

٤- نظام الانتاج الرأسمالي نظام طلب الربح

في نظام الانتاج الرأسمالي: يقطع النظر عن سعادة المجتمع

* جميع ادوات الانتاج ووسائله هي ملك خاص لطائفة من
الارستقراطية المال مؤلفين في شركات وبنوك .

* جميع الانتاج الصناعي هو احتكار - أو يتجه نحو أن يكون
احتكاراً - في أبدي الارستقراطية المالية التي تقبض بأيديها على
أدوات الانتاج ووسائله .

* الربح الخاص هو الدافع الوحيد الى الانتاج .

* العمال الذين يقع على عاتقهم عمل الانتاج الشاق لا يساهمون في
شيء البتة من الارباح ، ولا إدارة المعمل ، ولا تقرير اجورهم ، ولا
ساعات عملهم ، وليس ما يحميهم ضد البطالة والمرض والشيخوخة ،
وتشغيل الصبية القصر والنسوة الحاملات أو المرضعات أشغالا مرهقة ،
و ضد الحوادث الطارئة عليهم أثناء قيامهم بوظائفهم .

* الهيئة الاجتماعية ، التي تستهلك الانتاج ، لا تساهم أبداً في تقرير
نوع الانتاج الذي ترهب استهلاكه ، ولا في كميته ، ولا في تسعيره ،
ولا في مقدار الربح المحني من ورائه ، والانتاج ، إذا كان بدر
الارباح ، يجري بقطع النظر عن كونه نافعاً للهيئة الاجتماعية أو مضرراً .
... وهكذا نستطيع أن نرى بأن اعميننا كيف أن البورجوازية
تمثل سعادة المجتمع إهمالاً تاماً ، ولا تمكن الانسان من استثمار
موارد الطبيعة فقط بصورة لم يسبق لها مثيل ، بل هي تمكن نفسها من استثمار
الانسان ذاته أيضاً بصورة لم يسبق لها مثيل . البورجوازية قضت على
مستثمري القرون الوسطى لتقوم هي مستثمرة عوضاً عنهم .

٥- البروليتاريا الصناعية الحديثة ودورها في التاريخ

ومنذ الساعات الاولى التي دارت فيها دواليب الصناعة الضخمة ، ظهر المجتمع منشقاً بنوع خاص الى طبقتين على قطبين متعاكسين من المجتمع : طبقة البورجوازية نفسها صاحبة المصانع ، وطبقة العمال او البروليتاريا - الاولى قليلة العدد نسبياً ، وعددها يتضاءل يوماً عن يوم بسبب ابتلاع كبيرها اصغرها ، والثانية كثيفة جراحة تزداد وتزداد . وتحققت في هذا الوقت حكمة التاريخ بأسطع شكل : ان الظالم المستثمر الواحد يخلق بيده الوف الحفارين لقبره .

البروليتاريا الصناعية ، تلك الطبقة من المجتمع الحديث التي لا تملك بجاهزها الجراحة وسيلة للرزق إلا ما لديها من قوى عمل يدوية أو دماغية - قوى تعرضها في السوق كأى بضاعة اخرى ليشتريها أرباب الصناعة ويستخدموها في مشاريعهم ، غير مراعين في مشاغلها ولا في مشاريعهم إلا ما تدره على جيوبهم من الارباح - هذه هي الطبقة التي تمسك بيدها الان السلك التقدمي من التاريخ ، وتصبح طليعة المجتمع التحررية وقائدة نضاله ضد البورجوازية وضد البقايا الباقية من الانظمة التي بنت البورجوازية نظامها على أنقاضها . البروليتاريا هي التي تنهض ، في هذه المرحلة من التاريخ ، مدافعة عن نفسها ، وعن كل من ظلمتهم البورجوازية وسخرتهم لأطامعها ، وذلك في سبيل النهوض بالمجتمع من شكله الحاضر - شكل استثمار الانسان للانسان - إلى شكل أرقى لا استثمار فيه ، هو الشكل الاشتراكي .

٦ - البروليتاريا في نضالها نصرة الشعوب المستعمرة -

وحامد لنواء اعظم وبموقراطية

البروليتاريا مدافعة عن نفسها وعن كل من ظلمتهم البورجوازية ! ترى أظلمت البورجوازية غير البروليتاريا ؟ أجل ! وانه لسؤال يستدعي الوقوف عنده . ويحسن بنا لتسهيل غرضنا أن ندور حول نظام الانتاج الرأسمالي فنرى ميزاته من زاوية اخرى غير الزاوية التي رأيناها منها قبل قليل .

في نظام الانتاج الرأسمالي :

- * إنتاج ضخم صادر عن التقدم الآلي العظيم .
- * انتاج لا لسد حاجات المحتاجين بل للبيع في السوق لمن معه المال للشراء .

- * الحاجة إلى أسواق للتصريف ، إلى وقود ومواد خام لمتابعة الانتاج ، وإلى مناطق لتشغيل الراسمائل المتكدسة - مما ينطوي جميعه تحت لفظة : استعمار .

- * صعوبة الحصول على الاسواق والوقود والمواد الخام والمناطق لتشغيل الراسمائل كلما تضخمت مقادير الانتاج ، وقلّت مكنة الشراء عند المستهلكين بسبب شدة استثمارهم ، وانتشار البطالة ، ونهضت دول جديدة في ميدان الصناعة ونقدت للمزاحمة .

- * مزاحمة شديدة بين الدول على الاستعمار : ضم الاراضي ، اكتساب مناطق النفوذ ، وعلى المضاربة في التجارة وتسييج الاسواق بالتعريفات الجمركية العالية .

*سلسلة دورية من الحروب الاستعمارية لاقتسام العالم وإعادة اقتسامه .
 ... يتجلى لنا من هذا أن البورجوازية لا تظم البروليتاريا وحدها
 وتسخرها لأطاعها بل هي تمد ظلمها ٦ بطريق الفتح المسلح والتجاري
 والصناعي ٦ الى مقدار ما يمكنها من المستعمرات ومناطق النفوذ والانتدابات
 وترهق شعوبها وتستثمرهم . البورجوازية تستعير عبارة (مترنيخ) عن
 ايطاليا : «إنها اصطلاح جغرافي فقط » ٦ وتصف بـ «ظلمها جميع أوطان الام
 الضعيفة » .

فالبروليتاريا حين تناضل ضد البورجوازية لا تدافع عن نفسها فحسب ٦
 بل هي تدافع حتما عن الشعوب المستعمرة والضعيفة أيضاً . هي حتما حليفة
 هذه الشعوب ونصيرة قضيتها التحريرية تعمل لانصافها مع عملها لانصاف
 نفسها جنباً الى جنب .

مر لنا القول ان الديموقراطية البورجوازية ناقصة ٦ ينقصها تأمين
 الجانب الاقتصادي من حقوق الانسان ٦ ينقصها انصاف البروليتاريا .
 ونضيف هنا : ان الديموقراطية البورجوازية ينقصها انصاف الشعوب
 المستعمرة والضعيفة واحترام حقوقهم . وهذان النقصان هما ما تعمل
 البروليتاريا على سده حين تجتهد لاستبدال الديموقراطية البورجوازية
 بالديموقراطية البروليتارية : أي الديموقراطية التي تتناول الجماهير العميقة
 العريضة ولا تنحصر في طائفة من ارسنوقراطية المال ٦ والديموقراطية التي
 تتناول الشعوب المستعمرة والضعيفة ولا تنحصر في بضع دول مدججة
 بالسلاح ٦ ان عاملت بعضها على قدم المساواة فخوفاً من بعضها فقط ٦ وهي
 تعتبر ما سواها من قوميات العالم في الشرق نهياً مقسناً بينها .

البروليتاريا ٦ حاملة لواء النضال في سبيل الديموقراطية البروليتارية ٦ هي
 الجيش المتقدم الذي يسعى ويسعى ليس فقط لحفظ ارث الحقوق الانسانية

التي أثمرتها شجرة الديمقراطية البورجوازية ، بل أيضاً لابلاغ هذه الحقوق
أوسع مداها في المجتمع الاشتراكي المقبل وحول جيش البروليتاريا التقدمي
يلتف جميع التقدميين في الدنيا والمظلومين ، بما فيهم الشعوب المستعمرة
والضعيفة .

سعت البروليتاريا لتوسيع الديمقراطية البورجوازية منذ ما اختلج
ضميرها بالشعور الطبقي وبدأت تعي أهمية الرسالة التاريخية الملقاة على عاتقها
أي : بعد ولادتها في المجتمع الصناعي الحديث بزمن يسير .

كانت الديمقراطية البورجوازية في أول أمرها تأتي على البروليتاريا
حق التنظيم للدفاع عن نفسها ضد جشع البورجوازية . (وقد رأينا من
بعض التصريحات التي سقناها في مكانها كيف أن البورجوازية طمعت
في منع البروليتاريا من حق الانتخاب) ففي انكترا - مثلاً - كانت البروليتاريا ،
وقد انسلخت عن أراضيها في الارياف ، تمكس في مدن الصناعة
الجديدة تكديساً : ليس من مهمتها . لا تدابير صحية . أقدار .
أمراض . جهل . الصناعة تكبر حولها ، تصير جبارة ، وأرباب المصانع
تتورم جيوبهم ، يمدون حكوماتهم بالاموال لحشد الجيوش وفتح شعوب
الارض وثرواتها أمامهم . يحرصون على إبقاء الاجور عند أدنى حد تبقى
معه الروح عاقلة بالجد . يجهلون ساعات العمل أقصى ما يستطيع من
الطول . يستخدمون الصبية القصر . يستخدمون النسوة ولا اعتبار عندهم
للأمومة والاطفال . اذا مرض العامل أو شاخ أو طرأ عليه طارئ أثناء
عمله فلا نوع من الضمان له ، وأول ما يحس أرباب الصناعة بنقص في
أرباحهم يصرفون العامل ، وهو حر أن يصارع وحش البطالة لنفسه . أما
التنظيم من أجل دفع غائلة هذا الاجحاف فقد كان - جريمة بالمعنى الحرفي

للسكامة - في أعين أرباب المصانع . وهذه « قوانين منع التجمع »^(١) في
انكلترا سنة ١٧٩٩ م شاهدة على ما نقول . هي قوانين تنص صراحة على
منع العمال من التجمع في نقابات للدفاع عن مصالحهم . ازاء هذا
الاهتزام والظلم اضطرت البروليتاريا ان تلجأ الى التنظيم السري .
والشاريخ يروي لنا فيما يروي من هذا القبيل : ان سبعة عمال انكليز حكم
عليهم ٦ سنة ١٨٣٤ م بالنفي سبعة أعوام باعتبار انهم « مقاسرون (!) »
« مطبوعون على الشر (!) » لانهم ألفوا منظمة سرية - أو شبه منظمة -
ليحصلوا على شأن واحد زيادة في الاجور . ولم يتفهمهم تصريحهم : « نحن
إنما اجتمعنا لنحمي أنفسنا ونساءنا وأطفالنا من الانحطاط النام والهلاك
جوعاً » .

ولسنا بصدد الفوضى في تفصيل أنباء المذابح الدموية التي جازتها
البروليتاريا في سبيل توسيع قاعدة الديموقراطية البورجوازية حتى نالت حق
التنظيم وحقوقاً أخرى للدفاع عن مصالحها مما يؤلف سفر انتصارات
مجيدة لها وللديموقراطية الصحيحة كتب فيه فصل (كومين باريس) سنة
١٨٧١ م بسطور من الذهب . غير انه يكفي ان نعلم ان نضال البروليتاريا
استمر طوال القرن التاسع عشر تقريباً (ولا يزال مستمراً) ٦ ومنه
انبثقت النقابات الحديثة ٦ وهي في جوهرها : منظمات تكتيل للعمال ٦
وحماية لهم ٦ ومظالبة بمصالحهم عن طريق الاضرابات والمفاوضات وسائر
اشكال النضال . ونشأت الصحف العمالية والاحزاب السياسية العمالية
أيضاً لتمثيلهم في المجالس النيابية والوزارات ؛ ونشأت القوانين لضمانة
العمال وحماية بعض مصالحهم مما هو معروف بالتشريع العمالي ؛ ونشأت

المخازن والمشاريع التعاونية حماية لهم من المضاربات وغلاء الاسعار الاحتكارية .

والآن ، حان أن تترك افق التاريخ الماضي وندى البحث النظري لنشاهد الديمقراطية البروليتارية محققة في عالم الواقع ، ونرى هل وسعت قاعدة الديمقراطية فعلاً ، وسدت النقصين اللذين لمسناهما في الديمقراطية البرجوازية .

٧ - الديمقراطية البروليتارية في سدس الكرة الارضية

ضمانها لاوسع حقوق عرفها الانسان

الديموقراطية البروليتارية محققة الان في سدس الكرة الارضية ، في بلاد الاتحاد السوفياتي حيث ترتفع شمس الاشتراكية أعلى فأعلى وتنبئ . وهذا الدستور السوفياتي الجديد بين يدينا فلنأخذ منه حقوق الانسان وما نحتاجه لغرضنا :

الفصل الاول - المادة ١٠ :- حق المواطنين في الملكية الخاصة للارباح والاستوفيرات الناتجة من عملهم ، ولبيوت السكن وتوابعها ^(١) ، وللبضائع والادوات المنزلية ، ولأمتعة الاستعمال والراحة الشخصية حق يحميه القانون . وكذلك حق وراثة هذه الملكية الخاصة ^(٢) .

(١) كالحديقة الصغيرة حول البيت مثلاً بزرعاتها ودواجنها .
(٢) من هنا يظهر تماماً كذب وسخف الذين يحاولون تشويه الاشتراكية بزعمهم مثلاً : انها تجعل حذاءً واحداً أو قميصاً واحداً مشتركاً بين عشرة أشخاص . والحقيقة أن الاشتراكية تريد أن تجعل عشرة أحذية أو قمصان لكل شخص واحد — ان لم يكن أكثر . الاشتراكية تفرق جيداً بين ملكية ضخمة في المصانع والاراضي تخول صاحبها اضطهاد العمال والفلاحين والاستبداد الاحتكاري بالشعب ، وبين ملكية صغيرة تكاد

الفصل الثاني - المادة ١٧ :- كل جمهورية من الجمهوريات التي يتألف منها « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » تحتفظ بحق الانسحاب منه بحرية .

الفصل العاشر - المادة ١١٨ :- مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في العمل . وذلك يعني الحق في شغل مكفول مع أخذ جزاء جهودهم حسب مقدارها وقيمتها .

الحق في العمل مضمون بتنظيم الاقتصاد الوطني تنظيمًا اشتراكيًا ، وينمو القوى المنتجة في المجتمع السوفياتي نمواً مطرداً ، وبانعدام إمكان حصول الأزمات الاقتصادية ، وبتلاشي البطالة .

المادة ١١٩ :- مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في الراحة وتزبه النفس .

الحق في الراحة مضمون بانقاص ساعات العمل اليومي إلى سبع فيما يخص الأكثرية الساحقة من العمال ، وبمنح فرص سنوية للعالم والمستخدمين مع دفع اجورهم ، وبانشاء شبكة عظيمة من المصحات وملاجئ الراحة والاندية توضع تحت تصرف الشعب العامل .

المادة ١٢٠ :- مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية »

— لا تنفي بحاجات صاحبها . ذلك من تسليطه على استثمار غيره . هناك بون شاسع بين القطاعي الذي يشغل لحسابه مئات الفلاحين في أرضه المترامية ، وهو غارق في ملاهي المدن لا يرى فلاحوه وجهه الا عندما يطلع عليهم ليستولي على أطيب قسم من الموسم . وبين الفلاح الذي يملك قطعة أرض محدودة يشغلها هو وامراته وأولاده ، يساعد ثورهم وحماره ويتأزر مع جاره الفلاح الآخر . الاشتراكية تريد ان تقضي على ملكية القطاعي قضاة مبرماً . هذا ما لا شك فيه . ولكنها تعمل على تعزيز ملكية الفلاح الصغير الفقير وتكثير انتاجه بزيادة أرضه ، وبمساعده على تجويد الزراعة ، وتنظيم تعاونه مع غيره .

لهم الحق في الضمان المادي أثناء شيخوختهم ، وفي حالات المرض أو فقدان القدرة على الشغل .

هذا الحق مكفول للعمال والمستخدمين بنمو الضمان الاجتماعي على حساب الدولة نمواً واسعاً ، وبأسعاف طبي مجاني للعاملين ، وبشبكة من مراكز المعالجة والاستشفاء توضع تحت تصرفهم .

المادة ١٢١ :- مواطنو « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » لهم الحق في التعلم .

هذا الحق مضمون بالتعليم الابتدائي الاجباري العام ، وبالتدريس المجاني فيما يشمل التدريس العالي أيضاً ، وباعانات تدفعها الدولة للاغلبية الساحقة من طلبة المعاهد العالية ، وبالتعليم المعطى في المدرسة بلغة الطالب الاصلية ، وبتنظيم التدريس المجاني - سواء ما كان منه صناعياً أو فنياً أو زراعياً - للعاملين في المصانع والمزارع الحكومية والمزارع التعاونية ومحطات آلات الزراعة .

المادة ١٢٢ :- للمرأة في « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » حقوق مساوية لحقوق الرجل ، في جميع ميادين الحياة سواء ما كان منها اقتصادياً أو حكومياً أو ثقافياً أو اجتماعياً أو سياسياً .

إن إمكان تأمين كل هذه الحقوق للنساء مكفول بمنحهن حقوقاً مساوية لحقوق الرجل فيما يتعلق بالشغل والاجور والراحة والضمان الاجتماعي والتعليم ، ومكفول أيضاً بحماية الدولة لمصالح الام والطفل ، وباعطاء المرأة فرصاً اiban الحمل مع دفع اجرتها ، وبشبكة واسعة من دور التوليد وبيوت الحضانة وبساتين الاطفال .

المادة ١٢٣ :- مساواة مواطني « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » في الحقوق بدون أي تفرق بين القومية والجنس في ميادين الحياة

الاقتصادية والحكومية والثقافية والاجتماعية والسياسية. هو قانون غير قابل التبديل. وكل تقييد مباشر أو غير مباشر لهذه الحقوق، أو بالعكس، كل إقامة امتيازات مباشرة أو غير مباشرة للمواطنين على أساس ما ينتمون اليه من جنسية أو قومية، وكذلك كل دعاية في سبيل الاستئثار أو البغض أو الاحتقار الجنسي والقومي يعاقب عليه القانون.

المادة ١٢٤: — لاجل ضمان حرية الضمير للمواطنين فالكنيسة في «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية» مفصولة عن الدولة، والمدرسة مفصولة عن الكنيسة، وحرية ممارسة العبادات الدينية وحرية الدعاية ضد الدين مباحة للمواطنين جميعاً.

المادة ١٢٥: — وفقاً لمصالح العاملين وفي سبيل توطيد النظام الاشتراكي يؤمن القانون لمواطني «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية:

(أ) حرية الكلام

(ب) حرية الطباعة والنشر

(ج) حرية الاجتماع

(د) حرية السير بمواكب ومظاهرات في الشوارع.

هذه الحقوق مضمونة للمواطنين ولمنظماتهم بوضع المطابع ومخازن الورق والبنائات العامة والشوارع ووسائل المخابرة البريدية والهاتفية وامور مادية اخرى ضرورية لتنفيذ هذه الحقوق في متناول العاملين.

المادة ١٢٦: — وفقاً لمصالح العاملين وفي سبيل تشجيع الجماهير الشعبية على التعبير عن ارادتها بشكل منظم، ومن اجل تقوية نشاطها السياسي يؤمن القانون لمواطني «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية»

حق الاشتراك في تشكيلات اجتماعية : نقابات مهنية واتحادات تعاونية ، ومنظمات شببية و فرق رياضية ودفاعية و اندية ثقافية وفنية وعلمية - وفوق ذلك فان المواطنين من طبقة العمال وسائرهيات (الشيغلين) الذين هم اشد نشاطاً ووعياً يندمجون في « حزب الاتحاد الشيوعي الشامل » (البلشفي) الذي هو طليعة الشعب العامل في جهادهم لتوطيد وتنمية النظام الاشتراكي ، والذي يمثل النواة القائدة لكل منظمات العاملين سواءً ما كان منها مختصاً بالمجتمع أو بالدولة .

المادة ١٢٧ : - حرمة الشخص مكفولة لمواطني « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » فلا يمكن ان يلقى القبض على احد إلا بقرار من المحكمة او بتصديق النائب العام .

المادة ١٢٨ : - صيانة حرمة المسكن وسرية المراسلات حق يحميه القانون لمواطني « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » .

المادة ١٢٩ : - « اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية » يمنح حق اللجوء اليه للمواطنين الاجانب الذين وقع عليهم الاضطهاد بسبب دفاعهم عن مصالح العاملين ، أو بسبب أعمالهم العلمية ، أو بسبب جهادهم من أجل التحرر القومي .

فنحن نلاحظ كيف أن الديمقراطية البروليتارية وكيف أن الاشتراكية لا تجاهر بالحقوق السياسية والمدنية التي تجاهر بها الديمقراطية البورجوازية وتنف عند حد المجاهرة ، أي تركها كلمات معسولة على قراطيس صقيلة ، بل هي الى جانب كل حق تضمن أيضاً الشروط المادية الضرورية لتنفيذه ، وتضمن تأهيل الانسان لممارسة هذا الحق والاستفادة منه . الديمقراطية البورجوازية مثلاً - مثلاً - واحداً فقط - تجاهر بحرية الطباعة والنشر . ولكن الانسان الاسمي

الذي يجعل حتى وجود هذا الحق له ، الانسان المعدم الكادح كالدابة
للحمته ، كيف يستطيع ممارسة هذا الحق ؟ كيف يكتب ؟ كيف
يطبع ؟ من اين له المطابع والورق ؟ لقاء هذا ، ماذا تصنع
الديموقراطية البروليتارية ؟ بعد أن تكون أهلت الانسان ثقافياً
لممارسة حق الطباعة والنشر ، تجعل في مثاوله المستلزمات المادية
لممارسة هذا الحق . باختصار انها تعنى بتأمين الجانب الاقتصادي منه
لما نجد لهذا الجانب من الاهمية الحاسمة .

وكلمات متالين في هذا الفرق بين الديموقراطية البورجوازية
والديموقراطية البروليتارية يمكن أن تعد فصل الخطاب في الموضوع .
قال في خطابه عن الدستور السوفياتي الجديد :

« ان الدساتير البورجوازية تكتفي عادة بتعيين الحقوق الرسمية
للمواطنين دون أن تكثرث بالشروط الضرورية لتنفيذ هذه الحقوق ،
دون أن تهتم بتسهيل إمكانية تنفيذها ، وبضمان وسائل التنفيذ .
تلك الدساتير تتحدث عن مساواة المواطنين ، ولكنها تنسى انه لا يمكن
ان تكون مساواة حق بين العامل وصاحب العمل ، بين الفلاح
والملاك الكبير المتمول مادام صاحب العمل والملاك الكبير يتمتعان
بالثروة والنفوذ السياسي في المجتمع ، والعامل والفلاح محرومان كلا
الثروة والنفوذ ، مادام صاحب العمل والملاك الكبير مستثمرين
والعامل والفلاح تحت وطأة الاستثمار . الدساتير البورجوازية تتحدث أيضاً
عن حرية الكلام والاجتماع والطباعة ، غير انها تنسى أن كل هذه
الحریات يمكن أن تصبح كلمات فارغة فيما يتعلق بالطبقة العاملة اذا
كانت هذه الطبقة محرومة إمكانية التصرف بمواضع مخصصة
لاجتماعاتها ، وبمطابع جيدة ، وبمقدار كاف من الورق » .

وكذلك نرى ان الديموقراطية البروليتاربية تضمن حق الانسان كعضو من قومية يريد حربته قوميته لان استعبادها هو استعباده . والديموقراطية البورجوازية قد نادت مزاراً ، خصوصاً في أدوار أزماتها ، بوجوب تحرر كل قومية . نقرأ في دستور فرنسا ، سنة ١٧٩١ : « ان الامة الفرنسية لا تشهر حرباً ابتغاء الفتوح ولا توجه قواتها ضد حرية شعب من الشعوب » ثم ماذا نجد ؟ نجد فرنسا تبني لها امبراطورية بقوة الفتح المالح وتطلق موجات استعمارية تحاول بها إغراق القوميات العديدة ! نقرأ أيضاً في القواطيس الزاهية الألوان التي كانت تلقىها طيارات الحلفاء على العرب ابان الحرب العظمى : « ان الهدف الذي ترمي اليه بريطانيا العظمى وفرنسا على مد الحرب التي أثارها الطموح الالاماني الى الشرق إنما هو التحرير الكامل والختامي للشعوب التي طال عليها الزمن تحت عسف الترك ، وإقامة الحكومات والادارات الوطنية المستمدة سلطتها من مصالح السكان واختيارهم الحر » . ثم ماذا نجد ؟ نجد الحلفاء يجعلون العرب صحناً لذيذاً بينهم في وليمة فرسايل ! نقرأ أيضاً في المبادئ الاربعة عشر التي أذاعها الرئيس ولسون على العالم لتكون حجر الزاوية في معاهدات السلم :

* الشعوب والبلدان يجب أن لا تكون موضوع مساومة بين دولة ودولة كما لو كانت حجارة شطرنج في لعبة .

* كل اتفاق مختص بالاراضي يجب ان يكون في صالح سكان تلك الاراضي ، وليس قسماً من تعديل أو تراض يدور حول مطالب دول متنافسة .

* كل العناصر القومية الواضحة ميزاتها يجب أن تعطى أقصى ترضية

يمكن اعطاؤها لها بدون دس عناصر جديدة بينها من الشقاق والبغضاء أو الابقاء على عناصر قديمة من هذا النوع .

ثم ماذا الخبر ؟ تجدد البورجوازيات المنتصرة اثر الحرب العظمى لا تأخذ بعين الاعتبار إلا مطامعها الاستعمارية الخاصة ، مهملات حقوق القوميات طالبة التحرر إهمالاً تاماً ، وساعية لتمزيق كياناتها .

ان تمتع كل قومية في العالم بحريتها ، والعمل التعاوني مع قوميات العالم الاخرى على قدم المساواة ، لم تستطع البورجوازية وديمقراطيتها أن تحققه أو تدنو منه قلامة ظفر ، وظل حلاً بعيداً في أدمغة اشخاص انسانيين (ككوندرسيه) يستفظعون الفتوح ويصيحون بلسانه : « لا بد أن يدرك الشعوب انهم لا يستطيعون أن يكونوا فاتحين بدون أن يخسروا حريتهم الخاصة ! » .

فلما جاءت الديمقراطية البروليتارية ، لما احتلت الاشتراكية سدس الكرة الارضية بدلاً من عالم الفكر ، جعلت هذا الحلم — حلم حرية القوميات وعملها التعاوني على أساس المساواة — شيئاً واقعياً . ومنحت كل قومية من القوميات التي دخلت في نظامها حق الانسحاب والاستقلال ، وطلبت منذ أيام ولادتها الاولى في لظى جحيم الحرب العظمى ، من الدول المتطاحنة : « ان تشرع حالاً في المفاوضات من أجل سلم عادل ديمقراطي » أي : « سلم بدون إلحاقات ، وذلك يعني بدون استيلاء على أراض أجنبية ، وبدون ضم إجباري لقوميات اخرى » .

وأضافت ، بخصوص الحرب الاستعمارية التي كانت تستعر نيرانها

آنذاك : « ان متابعة الحرب لتمكين الامم القوية الغنية ان تقسم بينها القوميات الضعيفة المكتسحة لشيء تعتبره الحكومة السوفياتية أفضح جريمة ممكنة ضد الانسانية . والحكومة السوفياتية تعلن بجد تصميمها على توقيع معاهدة سلم تضع نهاية لهذه الحرب وفقاً للشروط المتولة سابقاً ، معاهدة تدمف بصورة متعادلة جميع القوميات من غير استثناء ! » (١) .

ولم تقف الحكومة السوفياتية عند حد الكلام بل منحت حق تقرير المصير لكل قومية من القوميات الضعيفة التي كانت قد أوتقتها الامبراطورية القيصرية بسلاسل استعمارية حديدية . وما علينا إلا أن نقرأ « إعلان حقوق شعوب روسيا » لنكون على يقين مما نزعم .
او هذا هو نص الاعلان الرسمي : (٢)

* « ان مؤتمر السوفيات الاول ، في حزيران من هذه السنة ، قد أعلن حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها

* « ومؤتمر السوفيات الثاني ، في تشرين الثاني المنصرم ، قد وافق أيضاً بصورة اقوى وأوضح على هذا الحق الذي لا يمكن نزعه من شعوب روسيا

* « فتنفيذاً لارادة هذين المؤتمرين ان « مجلس مفوضي الشعب » قد رسم المبادئ الآتية أساساً لخطته في مسألة القوميات :

(١) مقتطفات من وثيقة رسمية دعتها الحكومة السوفياتية : « نداء الى شعوب وحكومات جميع الامم المتحاربة » راجع نصها الكامل في كتاب : « عشرة أيام هزت العالم » لجون ريد صفحة ١٠٥

(٢) كتاب جون ريد أيضاً صفحة ٢١٩

- (١) مساواة شعوب روسيا وتمتع كل منها بسيادة نفسه .
 (٢) حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها تقريراً حراً حتى الى درجة الانفصال وتشكيل دولة مستقلة .
 (٣) الغاء كل الامتيازات والتجريمات الناشئة عن سبب وطني ، أو وطني ديني .
 (٤) نمو الاقليات القومية والفئات الجنسية المقاتنة أراضي روسيا نمواً حراً .
 وسمياً المراسيم سرباً عند إنشاء « لجنة معالجة قضية القوميات » .

باسم الجمهورية الروسية : مفوض الشعب للقوميات

يوغاشفيلي ستالين

رئيس مجلس مفوضي الشعب

ف . اليانوف (لينين)

ونظرة عاجلي الى المعاهدات التي عقدها الاتحاد السوفياتي مع بعض الشعوب الممرضة لفتك المظالم الاستعمارية تكفي لبرهان حب البروليتاريا وتنشيطها المحسوس لقضايا تحرر القوميات الضعيفة واستقلالها .
 نقرأ في المعاهدة بين الاتحاد السوفياتي وبلاد فارس سنة ١٩٢١ م ما يلي :

« رغبة في رؤية الشعب الفارسي مستقلاً مزدهراً ومتمتعاً بحقوق التصرف الحر بممتلكاته ، ان حكومة الجمهورية الروسية الاشتراكية الاتحادية السوفياتية تعان جميع الموائيق والمعاهدات والتشريعات والاتفاقات التي وقعتها الحكومة القيصيرية مع بلاد فارس ، والقصد من ورائها النيل من حقوق الشعب الفارسي ، ملغاة وغير معمول بها

وعديمة الاثر»^(١) . وملاءمة لروح هذه المعاهدة ، أسقطت الحكومة السوفياتية ديون الحكومة القيصريّة على الشعب الفارسي ، وتنازلت له بدون أي تعويض عن الطرقات والسكك الحديدية وخطوط التلغراف وامتيازات الموانئ وسائر المشاريع القيصريّة الاستعمارية في شمالي العجم ، وحرمت التبشير الديني الارثوذكسي في بلاد فارس ، وسلمت الى الشعب الفارسي جميع منشآت الكنيسة الروسية في أراضيه . وأخيراً - هذا هو الدستور السوفياتي الجديد ، تعبيراً عما تكنه الديمقراطية البروليتارية من العطف الشديد على القوميات المستعمرة والضعيفة ، نراه يمنح حق الالتجاء الى بلاد السوفيات لكل من يناله الاضطهاد والتشريد بسبب جهاده القومي .

ومما تجب ملاحظته في زيادات الديمقراطية البروليتارية على الديمقراطية البورجوازية مساواة المرأة بالرجل في الحقوق مساواة تامة ، وفسح المجال لها لأن تمشي معه كتمّاً الى كتف في جميع ميادين الحياة . « كل طبّخة يجب أن تعرف كيف تدير الدولة » . يقول لينين . وصح ما قاله المفكر الروسي (اناتول لوناتشارسكي) : « إن المرأة تظفر بالعدالة لأول مرة عندما تبني الدولة الاشتراكية » .

بعد هذا كله - نأمل أن يكون انضح لنا تفوق الديمقراطية البروليتارية على الديمقراطية البورجوازية ، وانها مرحلة أعلى في التطور التاريخي تعمل على تثبيت حقوق اشتراكية للانسان : سياسية ومدنية وقومية واقتصادية ، هي أوسع ما اتيح له ان يعرف في جميع تاريخه الطويل الممّيز .

(١) راجع كتاب « الشرق والغرب » لهانس كون صفحة ١٨

الطريقان امام حقوق الانسان

الحياة في طريق الاشتراكية

الموت في طريق الفاشيستيّة

١ - حقوق الانسان في خطر

لقد لمسنا كيف أن حقوق الانسان اذا سارت في طريق الاشتراكية فانها ترقى وتوسع وتبلغ أوسع مداها ، فلنسنا بحاجة الى طرق الموضوع من جديد .

ولا شك ان القاريّ قد غمرته موجات الغبطة ، حين لاحت له هذه الصورة البهيجة من حقوق الانسان في ظلال الاشتراكية ومن حقه ان يغتبط . ولكن علي القاريّ ان يعلم أن حقوق الانسان الاشتراكية لن تثبت لنا وترسخ دعائمها بدون الجهاد المر في سبيلها . علي القاريّ أن يعلم ان حقوق الانسان ، حتى في شكلها الديموقراطي البورجوازي ، هي الان عرضة لخطر الموت ، فكيف بها في شكلها الاشتراكي ؟ علي القاريّ أن يعلم أننا الان في منقلب من التاريخ ، وان الساعة تحتم علينا جهادين من أجل حقوق الانسان :

جهاداً لصيانة حقوق الديموقراطية البورجوازية ،
وجهاداً آخر لجل هذه الحقوق الى اوسع مداها الاشتراكي .
وكلا الجهادين جزء متمم واحدتهما للآخر .

صيانة الحقوق الديمقراطية البورجوازية من ؟ من البورجوازية نفسها ، ومن انضوى تحت لوائها في المعسكر الرجعي . هذا يلوح غريباً .
فانفسر ...

٢ - البورجوازية تريد نصب دكتاتوريتها العنيفة

عرفنا من بعض تصريحات سقناها في الفصل السابق ان البورجوازية وهي لا تزال في دور ثوراتها واستيلائها على مقاليد السلطة كانت تفكر جدياً بقصر حق الانتخاب عليها مثلاً - مما يشير الى انها في أعماق نفسها كانت تنظر نظرة ارتياب وقلق الى هذه الحقوق الديمقراطية التي تجاهر بها ، ويخفق قلبها خفوق الخوف على ما تكسده بأيديها من ثروة المجتمع . وهذا عين ما أبداه آباء البورجوازية الانكليزية عقب انتصارهم في الحرب الاهلية زمن (كرومويل) إذ قالوا معللين سبب تمنعهم من منح حق الانتخاب العام :

« اذا جعلنا السيد والخدام متساويين في حق الانتخاب فينضج ان هؤلاء الذين لا اهتمام عندهم بالملكية يعملون وكدهم انتخاب من لا اهتمام عندهم ايضاً . وعندئذ يجوز أن يحدث ان الاكثرية - عن طريق القانون لا الفتنة - تهدم الملكيات الخاصة . يمكنها أن تسن تشريعاً لذلك ، وعندئذ يتوجب ان تحصل مساواة في البضائع والعقارات ! »

وهذا ما لا تخشى البورجوازية شيئاً كما تحشاه .

إلا ان البورجوازية كانت مضطرة الى رفع علم الحرية والاخاء والمساواة ، حتى تجر الى جانبها ، في معاركها مع الاقطاعية والاولتوقراطية ، سواد جماهير الشعب . والشعب انضم الى البورجوازية وهو يعتقد انه

يحارب من اجل الحرية والديموقراطية المطلقة للجميع ، وان كانت الحرية التي شأتهما البورجوازية هي حرية التجارة والانتاج والاستثمار والاثرء الى أبعد حد ، بدون أئقال باهظة من ضرائب وتكاليف يفرضها امراء وأديرة الاقطاع وملوك الاوتوقراطية ، فيعرقلون بذلك مشاريعها ويقيدون نموها .

فلما انتصرت البورجوازية على أعدائها بمؤازرة جماهير الشعب لم تستطع فجأة عقب انتصارها أن تدوس علم الحرية والاخاء والمساواة وتنصب ديكتاتوريتها علنية مفضوحة . بل وجدت أن لابد لها من ان توافق في نظامها الديموقراطي البورجوازي على حريات وحقوق تناول جماهير الشعب التي آزرته في كسب معاركها بالامس . طبعاً ان البورجوازية ، بديكتاتوريتها الاقتصادية على المجتمع ، قد تمكنت ان تقلل من قيمة هذه الحقوق والحريات الى مدى بعيد . فضلاً عن ان جماهير الشعب لم تشرع حالا في استعمال هذه الحقوق والحريات بمقدار يؤذي البورجوازية كثيراً .

ولكن لما طلعت البروليتاريا الصناعية الحديثة — وليدة النظام البورجوازي — على مسرح التاريخ واحتلت مركزها الثوري على رأس الجماهير الشعبية ، وشرعت تستخدم الحقوق والحريات الديموقراطية التي تساهلت بها البورجوازية ضد البورجوازية نفسها ، وتكافح من اجل توسيع هذه الحقوق والحريات ، وتحرز الانتصارات الباهرة في كفاحها وتخفف من غلواء ارباب المصانع واسياد المال في تسيير كل شيء ، على هوى جيوبهم اخذ الارتياح القوي يستولي على البورجوازية من وخامة عواقب هذه الحقوق والحريات الديموقراطية إذا ظل أمرها يتفاقم .

فضلاً عن ان نظام الانتاج الرأسمالي يحمل في رحمه أجنة لاحتصاص من التناقضات والازمات . فكما اسرعت البورجوازية في طريق تقديمها نضج جنين أزمة في نظام انتاجها الرأسمالي ، واسقطها في شبكة من الارتباكات ، وأضعفها امام الهجمات التي تبنيها عليها الحقوق والحريات الديمقراطية .

فلنأخذ لنا مثلاً واحداً فقط من حقوق الديمقراطية البورجوازية - حق الانتخاب .

ان البورجوازية ، وهي مفتوحة العيون على مصالحها الطبقية فتحاً كبيراً ، ترى البروليتاريا مع سائر جماهير الشعب الناقمة عليها ، تتمكن بواسطة هذا الحق - حق الانتخاب - من إرسال ممثلين لها إلى المجالس النيابية منتخبين من اعمق صفوفها ، لا من صفوف البورجوازية ، ممثلين هدفهم الدفاع عن مصالح منتخبهم ضد اطماع البورجوازية ومشاركة البورجوازية في الحكم على الاقل - ان لم نقل انتزاعه السكلي منها . ثم ترى البورجوازية عدد هؤلاء الممثلين يزداد مرة عن مرة بفضل ازمات الانتاج الرأسمالي وضعطه الثقيل على البروليتاريا وجماهير الشعب ، وبفضل يقظة البروليتاريا وجماهير الشعب ونقدم تنظيمها فتدرك البورجوازية سريعاً ان هذا الازدياد ، اذا استمر حتى يبلغ نتيجه المنطقية ، انتهى بالقضاء عليها ، أو هي تدرك حسب كلمات ماركس : « ان جميع الاسلحة التي صقلتها ضد الافكار الاقطاعية تنقلب عليها نفسها وان جميع وسائل التثقيف التي اخترعتها لتكافئ ضد افكارها نفسها ، وان جميع الآلهة التي خلقتها تدير لها الظهر » وتدرك ايضاً : « ان كل ما يسمونه حريات بورجوازية أو أدوات

هرقى ونقدم تهاجم وتهدد سيادتها الطبقية» ^(١) فهل تبقى البورجوازية مكتوفة الايدي ؟ لا . انها تلعن حق الانتخاب ونتمسك على المجالس النيابية ، وتسفن فأسها ، لآبادتها من الوجود . وهكذا نجد البورجوازية التي تكون قد اجتازت دور الرأسمالية الطليقة المرتكزة على التنافس الحر ، واندفعت في طريق الرأسمالية الضخمة الاحتكارية ، يشتد تأففها يوماً عن يوم من ديموقراطيتها ولو انها بذتها ، وتبيت لها المكائد وتشتهي لو تنشب فيها محالبها وتدعك صكوك الحقوق والحريات الديموقراطية التي تبجحها ، وتلقياها في سلة زباله التاريخ وتنصب ديكتاتوريتها علانية مفضوحة وحشية .

٣ - الفاشية : قناعها المزركش ووجهها الحقيقي

ديكتاتورية البورجوازية العلنية المفضوحة الوحشية — بعد أن تكون قد بطشت بالحقوق والحريات الديموقراطية — هذه هي الفاشية ! الفاشية ، بكلمة مختصرة ، معناها الغاء الحقوق والحريات الديموقراطية ، معناها الغاء حقوق الانسان التي أحرزها خلال اجيال من الجهاد المجيد ضد المستبدين في جميع الالوان والاشكال التي ظهروا فيها ، ورده تحب ضغط القوة البربرية الى حال كحاله يوم كان بلا حقوق البتة ^(٢) . ينبغي أن ندعم ما نقول بالبراهين :

- (١) كارل ماركس: كتابه « الثامن عشر من شهر برير ولويس بونايرت » .
- (٢) قد يقال : ان هذه وجهة نظر المتطرفين الى الفاشية ، وجهة نظر الاشتراكيين والشيوعيين ! ولكن امامنا مثلاً كلمات الكاثوليكي الاسباني الكبير ، اوسوريو ايغالاردو ، مؤسس الحركة المسيحية الاجتماعية في اسبانيا تشهد لنا أن هذه وجهة نظر كل انساني مخلص الى الفاشية ، بلا أدنى اعتبار الاحزاب . وغالاردو لا يمكن أن يقيم بالاشتراكية أو الشيوعية ، وهو الذي كان مرة وزير الاشغال العامة الاسبانية زمن الملكية . قال

طبعاً ان الفاشستية لا تنادي على نفسها بانها ديكتاتورية الراسمال
الضخم الاحتكاري . اننا نكون ساذجين سذاجة الصبية اذا انتظرنا
منها ذلك ، بل هي بالعكس تحرص ، خصوصاً في بدء أمرها ، على
أن تبرز بدهان بريق بريقاً مغريباً خلافاً في أعين الناس . تستعمل
الالفاظ التي تمثل امانى الامة والوطن ، تصيح باللهجة التي تعرف انها
تنفس غضب الجماهير ، وتنفذ احياناً بشعارات ثورية مدهشة بليلة
لعقول الناس ، وتتفنن في السقاء مسؤولية الشقاء الذي يقاسيه الشعب
على غيرها ، وتستتر فراغها بستار المظاهر الفخمة قصد التحويل الخ .
الخ . غير أنا إذا شحذنا سلاح الفهم فاننا نستطيع بسهولة أن نضحك
عنها دهانها ، ونلمس حقيقتها وراء بريقها الخارجى من تصرفاتها الواقعة .
سنة ١٩١٩ خاضت الفاشستية الايطالية معمة الانتخابات بهذا
المنهاج الغريب على . ثلها :

* ضربة خارقة على الراسمال متزايدة ، يكون من ورائها المصادرة الجزئية
للثروات .

* وضع اليد على كل ملكية خاصة بالمؤسسات الدينية .

* تأليف لجان فنية للصناعة والعمل والمواصلات .

* تشكيلات بروليتارية لادارة المصالح العامة .

* تنفيذ حقوق عمال السكك الحديدية « السكك الحديدية لعمالها » .

غالاردو في الخطاب الذي القاه في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ ، في المؤتمر الاوروي
الدفاع عن اسبانيا الجمهورية : « انا الكاثوليكي المدافع عن حرية الضمير ، يجوز لي ان
اكون بجانب مضطهدي الحرية ؟ (يعني عصاة فرنكو) انا نصير مبدأ الحرية والمساهلة ،
يجوز لي ان اضع نفسي مع الفاشستية ماحية جميع الحريات ؟ انا انسان الحقوق (يقصد :
الحماي) طول مدة حياتي ، يجوز لي ان اضع نفسي في صفوف هؤلاء الناس الذين ينكرون
الحقوق ، ويمولون من القوة الها ؟ كلا ! ... »

* مساهمة العمال في ادارة الصناعة .

وفي السنة ذاتها ١٩١٩ ، عززت الفاشستية الايطالية مناهجها السابق بما يلي :

* خلق جمعية وطنية ايطالية تكون عضواً من جمعية اممية لكل الشعوب .

* إطلاق حزبة الفكر ، الضمير ، العقيدة الدينية ، الاجتماع ، الطباعة والنشر ، الدعاية ، العمل السياسي فردياً وجماعياً .

* خلق مؤسسة مالية وطنية .

* وضع اليد على المداخل الناتجة عن مصادر غير مشمرة (١) .

* الاراضي الكبيرة للفلاحين .

ذلك في سنة ١٩١٩ . أما اليوم فالذي يريد ان يطبع هذين المنهاجين في ايطاليا الفاشستية يكلفه ذلك خمس سنوات من حياته في اعماق السجون !

ماذا حدث ؟ نستطيع أن ندرك ذلك من بعض المراسيم التي سارعت الحكومة الفاشستية الجديدة الى إصدارها . فإنها أصدرت في ١١ كانون الثاني ، سنة ١٩٢٣ ، مرسوماً يقضي بالغاء مرسوم (فيسوشي) الصادر قبلاً في ٢ ايلول سنة ١٩١٩ ، والذي جعل بعض احتلالات قام بها الفلاحون للاراضي البور قانونية وقيماً . فلما صدر مرسوم الالغاء ، اضطر الفلاحون بموجبه ان يعيدوا الى الملاكين الكبار ، من غير أقل تعويض ، اراضي حراثوها وسقوها واحيوها بعرق جباههم ، بينما كان الملاكون الكبار قد تركوها مواتاً مهملة !

(١) أي غير زائدة في ثروة المجتمع كمداخل صناعات الحرب أو مرابح دور القمار

مثلاً .

ونستطيع ايضاً أن ندرك الانقلاب الذي طرأ على الفاشستية من بعض تلك الاسئلة المرة الجارحة ، التي كان يقذفها في وجه الدوتشي موسوليني ، النائب الاشتراكي الايطالي (حيا كوميونياتي) الذي صرعه الفاشستية على اسلوبها الخاص في الاغتيال ، وكاد مصرعه يؤدي الى نسفها لو انتهز اعداؤها الفرصة .

كان (ماتيوقي) المتهم الجسور يقف سائلاً موسوليني عما حل بالمنهاج الفاشستي السابق . كان يرفع بيده «البوبولو ديتاليا» ، جريدة موسوليني الخاصة ، عدد ٢٨ ايلول سنة ١٩٢٠ مثلاً ، وقرأ منه كلاماً يحمل إمضاء الدوتشي الصريح : « ان ثورة ١٩٢٠ الايطالية (يقصد احتلال البروليتاريا للمصانع) إنما هي جانب من الثورة الفاشستية ! » ثم يسائل ماتيوقي الدوتشي : « هل تنكر هذا الان ؟ » وينهال عليه بسلسلة من الاسئلة غير هذا : « كيف تفسر أن الفاشستية ، وهي تلعب دور الزانية ، قد انتقلت من فراش الطبقة العاملة الى فراش الطبقة الرأسمالية ؟ » . « انت صرحت امام الهيئات العمومية وفي الكتابة ان الفاشستية لن تطرح نفسها على قدم الملك ، لان الملك لاوحدة بينه وبين فكرة الوطن ، وقد كنت انت اول من طرح نفسه على قدم الملك ، انت يا من كنت تريد إعلان الجمهورية . كيف تشرح هذا ؟ » « أنت أعلنت قتل الملوك واجباً أدبياً ، وشهّرت المالكين بأنهم قطاع طرق ، وحاربت الجيش ، وهاجمت الاكايوس وانكرت وجود الله ، واليوم انت المحامي الرئيسي عن هذه الاشخاص والافكار . كيف تفسر نفسك ؟ » .

الفاشستية الايطالية ، وهي تلعب دور الزانية ، قد انتقلت من فراش الطبقة العاملة الى فراش الطبقة الرأسمالية وطبقة الملاكين

الكبار - هنا بيت القصيد ! إن الفاشستية طبعاً لم يكن ينبض صدرها
 بأي اخلاص للطبقة العاملة ، عهد تظاهرت بحبها واضطجعت في فراشها .
 ولكن ذلك كان طمأنة منها للطبقة العاملة وبابلية لصفوفها وتمهيداً
 لمباغمتها بالخيانة - للانتقال السكلي الى فراش الطبقة الرأسمالية وانشاء
 ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري .

برغم حرص الفاشستية أن تفتصل من الرأسمالية وتحفي حقيقة أنها
 نجدها في بعض ساعات الفورة تفضح نفسها بنفسها من غير وعي .
 لناخذ لنا مثلاً كلمة (دي ستيفاني) احد وزراء المالية الفاشيست :
 « لقد قطعنا علاقتنا بخطة دأبها مطاردة الرأسمال . ان نظاماً مالياً
 اساسه اضطهاد الرأسمال هو نظام به لوثنة جنون !! ولناخذ لنا مثلاً آخر
 هذا التصريح الذي دفع به رئيس المنظمة الفاشستية (الفاشيوي) في
 مقاطعة بزارو اوربينو الى اغنياء المقاطعة :

« لقد جمعت مؤخراً الاعانات التي منحها للفاشيوي ملاكو هذه
 المقاطعة . من العيب أن أقول انني لا أعرف كيف أستعمل هذا
 المقدار العظيم من المال المنصب على الخزينة ! (تهكم) . بعض الاسياد
 ملاكو الملايين العديدة قد قدموا لنا مقادير هي بالنسبة الى
 الرأسمال الذي اقتذته لهم الفاشستية لا تكاد تبلغ شيئاً . بناء على ذلك ،
 وباعتبار اننا لم نكد نجتمع شيئاً عن طريق الاساليب التي اتبعناها
 حتى الان ، فاني احذر ملاكي مقاطعة بزارو اوربينو انني سأفرض
 عليهم ضرائب على قياس رأسمالهم ، وبهذه الطريقة أستطيع حالا ان
 انظم مالية مقاطعةنا ! »

وربما تخيل البعض ان الفاشستية عموماً هي من عمل شخص ، وان
 الفاشستية الايطالية هي من صنع موسوليني . وتلك وجهة من النظر

بعيدة عن الصواب جداً . لان الفاشستية ، كما أسلفنا هي بادرة تاريخية تظهر في مرحلة من التاريخ حين ترتاع البورجوازية الاحتكارية لمشهد أمواج الثورة نتعاطم عليها ، واشدة سرعة أزماتها المهددة لها بالتمزيق والانلاف ، فتتقلب على الحقوق والحريات الديموقراطية وتفتريها افتراساً إذا استطاعت . اما الاشخاص مهما برزوا فما حكمهم إلا حكم الادوات والابواق تستخدمها هذه البورجوازية لما تطمع فيه من تحصيل نفسها ، وليس أدل على صحة رأينا مما اتفق لموسوليني ذاته . . . في ٢٣ تموز ، سنة ١٩٢١ ، أعان موسوليني الهدنة بين الفاشستية واعداؤها . واعلن استعداد الفاشستية لاتفاق تعاون بينها وبين احزاب اخرى ، منها الحزب الاشتراكي ! وفي آب وقع الاحزاب ، والفاشستية ايضاً ، اتفاق التعاون هذا . ومن جملة الامضاءات على الاتفاق امضاء الدوتشي موسوليني بعينه . فماذا صنعت عناصر الرجعية — عناصر الثروات الطائلة والامتياز والاستثمار : أصحاب البنوك وأرباب المصانع وشركات البواخر وأصحاب الفنادق الارستوقراطية وأندية القمار والفسق وملاك الارض الكبار ؟ هل احتراموا إرادة الدوتشي وقبلوا الهدنة واتفاق التعاون أمراً واقعاً ؟ لا ! منذ الساعة الاولى صمموا على ضرب عرض الحائط بارادة الدوتشي . وما هي إلا مدة يسيرة انقضت على الهدنة والاتفاق — من آب الى ايلول فقط — حتى بدأت معارضة الفاشستية لموسوليني تنفجر انفجاراً فعلياً . وفي بولونيا أشد الفاشست أغاني ضد الدوتشي ، وظهرت كتابة كهذه عريضة في الشوارع : « من يخن مرة واحدة يخن مرتين ! »

كان موسوليني قد كتب بخصوص اتفاق التعاون على أثر توقيعه : « سأحيي بجميع قواي ميثاق السلم هذا الذي يبلغ في نظري أهمية

حادث تاريخي لانه فريد لم يسبق له مثيل . وفي سبيل هذا الهدف سأحاول أن أطبق المثل القديم الحكيم جداً : من لا يستعمل القضيبي فانه يكره ابنه . فاذا كانت الفاشستية بنتي — وهذا ما قد عرفه كل انسان — فاني أقسم بقضبان ميثاقي وشجاعتي وعاطفتي انني سأصلحها أو أجعل حياتها مستحيلة !»

وزاد على ذلك حين رأى عناد الفاشستية له : « إذا لم تتبعني الفاشستية فلا أحد يجبرني أن اتبع الفاشستية . انا الدوتشي ، زعيم ، وهي لفظة لا تشرني بنوع خاص بل تسر آخرين . ان عددنا كثير ، الانشقاق لا بد منه ، دعه يقع . ميثاق السلم سيكون له رد فعل تنظيف الحزب !» .

إلا ان الفاشستية - بنت الدوتشي - لم تعباً بجمعية أبيها والتجرت في طريق إهمال وجوده تماماً . في المدن الصناعية ، في المناطق الريفية ، حيث الاملاك الكبيرة ، اشتد نشاط أرباب المصانع والملاكين الكبار ، وأخذوا ينظمون ويمونون تشكيلات فاشستية خاصة .

هنا انجم قلب الدوتشي العطشان الى الزعامة وخشي أن يفقد من يده زمام « بنته » فعلاً . وفي مؤتمر الفاشستية في روما ، تشرين الثاني سنة ١٩٢١ ، نهض فلحس إمضاءه عن اتفاق التعاون وقبر الاتفاق نفسه ، وأعلن وجوب حملات إرهاب ضد كل الاحزاب خصوم الفاشستية .

ولعل هذا كاف لأن لا يترك لنا مجالاً للربب في خطأ من ينظرون الى الفاشستية كأنها صنع شخص . ولا يرونها في ضوءها التاريخي الحقيقي ارتداداً الى وراء وموجة إرهاب من البورجوازية الاحتكارية المنذرة تخاف أن تخنفها حيائل أزماتها المتعقدة وتحرق

امتيازاتها لطفة الثورة ، فتمتخذ تدابير الحماية لنفسها بالغاء حقوق
الانسان وحرياته الديمقراطية تكتيفاً لا يدي الشعب الواقع ضحيتها
ومنعاً له من الحركة .

كان كلامنا وما استنتجناه حتى الان يدور حول الفاشستية
الايطالية . فلننتقل الان الى الفاشستية الالمانية تعزيراً لصحة البحث :

النازية كالفاشستية الايطالية ، بدأت أمرها بالضرب على وتر
حاجات الجماهير . أمأنا منهاجها الاساسي ، فلنأمل منه في النقاط
الآتية :

* الغاء المداخل التي لا يحصلها أصحابها بكدهم .

* كسر قيود العبودية للفائض .

* مصادرة جميع الارباح الناتجة عن الحرب .

* تحويل جميع الشركات ملكاً عاماً للامة .

* مقاسمة الارباح الناتجة عن الصفقات الضخمة .

* وضع اليد على الاراضي بدون تعويض في سبيل استعمالها العام .

* القصاص بالموث للمرابين وقناص الارباح .

ولئلا يدب ديب من الشك بمقاصد النازية في نفس الراسمالية

سعت النازية باكراً لطمأننة الراسمالية سعياً كشف النقناع عن مقدار

تفاقها وتضليلها للجماهير . وهذا كتاب (درزدن) احد الزعماء النازي ،

الى الراسمالي فريتشي في ويمار ابدع ما يمكن أن يدل على صفة النازية

وحقيقة أمرها . قال درزدن : « لاتسمحوا لانفسكم ان تحيرها نصوص

اعلاناتنا . . . من المؤكد ان هناك عبارات هي فخاخ صيد مثل :

فلتسقط الراسمالية الخ ، ولكننا عبارات ضرورية بدون جدال .

لأننا تحت لواء : الماني وطني ، او وطني فقط يجب ان نأتمن اننا لن
 نبلغ هدفنا ابدآ ولا يكون لنا مستقبل . ينبغي أن نتكلم لغة العمال
 الاشتراكيين المستأئين . . . وإلا فهم لا يشعرون انهم في البيت معنا .
 تمكنت النازية من امتلاك ناصية الفن الفاشستي في النفاق
 وتضليل الجماهير . وتمكنت من الانتصار بفضل الفسوخ في جبهة
 خصومها أولا - جبهة الطبقة العاملة - وبفضل براعتها في النفاق (١)
 وإخفاء حقيقة انها ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري ثانياً .
 فتبعها الجماهير المخدوعة على اعتبار انها حركة خادمة لمصالحها - أي :
 حركة ضد الرأسمالية الاحتكارية العاتية . ثم لم تلبث النازية بعد ان
 قبضت على مقاليد السلطة بيدها الحديدية أن بدت حقيقتها التي لا شك
 فيها : حقيقة ديكتاتورية الرأسمال ، واصيبت الجماهير بالخيبات القاسية .
 وكانت أقسى هذه الخيبات خيبة البورجوازية الصغيرة . فانتوسع
 قليلا . . .

ذكرنا البورجوازية الصغيرة فما هي ؟ وما أهميتها ؟ البورجوازية
 الصغيرة هي الطبقة الوسطى الصغيرة التي تحتل الدرجات المتوسطة في
 سلم المجتمع بين رأسه وأسفله - أي بين البورجوازية الكبيرة التي
 تتمتع بالرأسمال الضخم المسيطرة ، وبين البروليتاريا المجردة من
 الملكية الخاصة . إنها طبقة مبهمة الحدود في المجتمع الغربي الصناعي

(١) «ليس للاماني أقل تصور كيف يجب أن يضل الشعب اذا كان الغرض استغواء الجماهير»
 يقول هتلر ومنطوق كلامه اعتراف بهذه البراعة النازية في النفاق وفي استئلال طيب قلب
 الالاماني العظيم . هذه الجملة هي من كتاب : كفاحي حذفت منه بعد الطبعة الثانية
 عشرة سنة ١٩٣٢

الحديث يكاد يتعذر عليك أن ترسم خط التمييز بينها وبين البورجوازية الكبيرة من جهة ، وبينها وبين البروليتاريا من جهة أخرى . إنها لطبقة قلقة جداً أيضاً ، غيرة على كل ملكية خاصة ولو تافهة ، متشبثة بها بشكل شديد ، تحرص حرصاً قوياً على حياة مكثفية هائلة ، وتطمح إذا طمحت في الصعود الى مصاف البورجوازية الكبيرة . على أن نضوج الرأسمالية وما يرافقه من التقدم في طريق الاحتكار وتكدس الثروات في أيدي اقلية على قمة الهرم الاجتماعي ، يؤذي البورجوازية الصغيرة اذى شديداً . يلقيها تحت رحمة البورجوازية الكبيرة ويهددها بالتلاشي ، لان القاعدة العامة هي : ان الرأسمال الكبير يبتلع الصغير . يوماً فيوماً ، أزمة وراء أزمة من هذه المشاكل التي تأخذ بخناق المجتمع الرأسمالي ، تلاعباً بأسعار البضائع والعملية بعد تلاعب تلجأ اليه الاحتكارات لاكتساح الاسواق — تجدد البورجوازية الصغيرة نفسها مضطرة الى أن تتخلى عن رساميلها الصغيرة ، عن صناعاتها وتجاراتها المتوسطة ، وصرغمة على الانحدار الى مصاف البروليتاريا تحتها . اين رساميلها وصناعاتها وتجاريتها ؟ التهمتها البنوك الضخمة وشركات الصناعة والتجارة الاحتكارية ! فتنقم البورجوازية الصغيرة على البورجوازية الكبيرة . ولكنها في الوقت نفسه تخشى البروليتاريا كثيراً ، لانها تعتقد ان البروليتاريا تريد تجريدتها من ملكيتها الخاصة . والواقع ان البورجوازية الكبيرة هي التي تجردها من هذه الملكية ، وتخرجها من الميدان بقدرتها على الاحتكار وبضغط مناجمتها السقاهرة . وسبيل البورجوازية الصغيرة هي أن تضع يدها بيد البروليتاريا لايقاف طغيان البورجوازية الكبيرة عند حده أو للقضاء عليه .

بدلاً من هذا السبيل القويم ، الذي أخذت تدرك صحته البورجوازية الصغيرة فتمتدح منه « جبهة شعبية » جارة يرتجف لها الراسمال الضخم ، تضطرب في دماغ البورجوازية الصغيرة هواجس خيفة ، هي : هواجس تفكيك حلقات الراسمال الضخم الاحتكاري والعودة الى ايام الرساميل الصغيرة والمتوسطة في باكر عهد الراسمالية .

الفاشية ، ديكتاتورية راس المال الضخم الاحتكاري ، تلعب لعباً ماهراً على هذه الهواجس . تجر معها جماهير الطبقة الوسطى الصغيرة ربثاً تستقر في مقاعد الحكم ، ثم تخونها خيانة وحشية محتمة . هذا ما فعلته النازية تماماً . وهذا ما حل بالطبقة الوسطى الصغيرة الالمانية .

صغار الخائوتين ، الصناع المستقلون ، صغار الموظفين ، الدماغيون الفقراء العاطلون عن العمل من محامين ومهندسين واطباء ومعلمين الخ . . . وصغار الفلاحين — جميع هؤلاء اعتنقوا النازية وكانوا عمودها الفقري . منهم ومن أبنائهم تألفت « فيالق الهجوم » النازية (SA) و « رابطة الطبقات الوسطى التجارية للنضال » كان هؤلاء يهجنون بتفكيك حلقات الراسمالية الاحتكارية ، والقضاء على هذه القوة العاتية التي تدهورهم في هوة الانفلاس وتضطربهم الى مغادرة اسواق المزاحمة .

في ٣٠ كانون الثاني ، سنة ١٩٣٣ ، عندما اصبح الحكم في يد النازية ظنت البورجوازية الصغيرة الالمانية ان حاكمها يتحقق . ولكن هيئات ! .

ان كل تلك الرغبة — رغبة عبارات التهديد للراسمالية — التي كانت طافية للعيان على وجه النازية انقضت ، وبدأت حقيقة النازية :

ديكتاتورية الراسمال الضخم الاحتكاري ، ديكتاتورية على البورجوازية الصغيرة أيضاً كما هي ديكتاتورية على البروليتاريا !

يكفي شاهد او شاهدان بسيطان لنفني عنا كل شك في صحة ذلك ، تحت ظل الحكومة النازية الجديدة ، تألفت حالا هيئة للاشراف على اقتصاديات البلاد دعيت « المجلس الاقتصادي الاعلى الموقت » فمن كان أعضاء تلك الهيئة ؟

أبورجوازين صغاراً . يمكننا أن نسرد اسماء أهم الاعضاء ونرى :
 الهر كروب فون بولن . ملك السلاح في المانيا ، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين جنيه ، راسمال صناعته ٥١٥ مليوناً .

الهر فريتز تيسن . ملك الفولاذ ، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين ، راسمال صناعته ٥٤٠ مليوناً .

الهر ف . ك . سمينز . ملك الكهرباء ، تقدير ثروته الخاصة ٦ ملايين ونصف ، راسمال صناعته ١٢ مليون ونصف .

الاستاذ كارل بوش . مايونيير شركة الصباغة ، تقدير ثروته الخاصة مليون ، راسمال صناعته ٤٠ مليوناً .

الهر أ . دين . مدير ستديك البوتاس ، راسمال صناعته ١٠ ملايين .
 الهر بوخرنكر . مدير مصانع فولاذ مكسيمليان ، راسمال صناعته مليون ونصف .

الهر فون شرويدر . صاحب بنك .

الهر فون فنك . صاحب بنك .

الهر ف . رينهارت . صاحب بنك .

وفي سنة ١٩٣٤ ، نظمت الحكومة النازية الصناعة الالمانية ، بمقسيمها الى اثني عشر قسماً : كل قسم تحت ادارة الراسمالين الضخام

١٩٣٣، والكل تحت إدارة الهر كروب فون بولن ملك السلاح المذكور آنفاً .

لعلنا في غنى عن القول ان حلم البورجوازية الصغيرة الالمانية تبخر الان . ليس هذا ما سعت له وما انتظرته . الراساليون الضخم الاحتكاريون هم على كراسي الحكم في الدولة الجديدة . « رابطة الطبقات الوسطى التجارية للنضال » حلت بعد ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ بقليل ! اذن فالثورة - يعني ثورتها ضد البورجوازية الكبيرة ورأس المال المضخم الاحتكاري - لم يتم منها شيء مطلقاً . فليكن هناك ثورة ثانية ! هاك ما نطق به أحد شباب الـ (S.A) بعد صعود النازي الى الحكم : « ان ثورتنا قد بدأت فقط . اننا لم نبلغ هدفنا من اهدافنا بعد . يتكلمون عن الحكومة الوطنية ، عن اليقظة الوطنية . أي شيء هو هذا ؟ ان المهم هو القسم الاشتراكي من منهبنا . لم يزل امامنا غير عدو واحد نكتسحه : « البورجوازية » . وهاك ما نطق به شاب آخر : « كيف يستطيع رفاقنا في الحكم أن يعتقدوا ان الراسالية ، العبودية للقوائض ، الاستثمار الوقح قد ازيل . انهم يمشون صفوفاً أمام البورصات ، أمام الواجبات المتوجبة ؛ انهم يقرأون في الجرائد البورجوازية لوائح الحساب وأثمان الاسهم . انهم يرون الراساليين يدافعون عن آخر قلاعهم بقوة المستيئس . ولهذا فان حر كتنا لا يمكنها أن تأخذ مهلة . فلنتابع نضالنا بالروح السابقة ، لاث اشياء كثيرة لم تزال وراء منا . نحن نأمل أن لا تبدل ثورتنا الوطنية الاشتراكية صفتها ما دما لم نشيد الرخ الثالث بعد ! »

لتكن هناك ثورة ثانية ! ولكن الراسمال الضخم ، وهو ديكمتاتور الموقف الان ، لن يسمح بهذه الثورة الثانية بتاتاً . وادولف هتلر ،

(در فيزر) ، خادم الراسمال الضخم ، الذي يعرف كما لا يعرف غيره مقادير الاموال الهائلة التي انصبت على خزان حزبه من (فريتز تيسن) ملك الفولاذ وغيره من طبقة حتى اليهود منهم^(١) ، لن يسمح بهذه الثورة الثانية ايضاً . في ٢ حزيران سنة ١٩٣٣ ، في اجتماع حضره زعماء الـ (S.S) « القمصان السوداء » بأودينغثال ، خطب صائحاً :

« سأسحق بهمجية وبدون شفقة ، كل محاولة يأتيا الرجعيون أو أية هيئات اخرى لقلب النظام الراهن . وسأرتد بعدم الشفقة ذاته ضد ما يسمونه الثورة الثانية ، لان ذلك لا يمكن أن تنتج عنه إلا نتائج فوضى . من ينهض مقاوماً لدولة الوطنية الاشتراكية ، فسأضربه بقسوة اين كان ! » .

وأعد (در فيزر) العدة ضد أي عمل قد يصدر عن الـ (S.A) ، فضخم بين سنة ١٩٣٣ و ١٩٣٤ حرسه الشخصي « القمصان السوداء » (S.S) وهم مرتزقة موضوعون تحت السلاح لحماية مصالح أرباب المصانع ، وكبار الملاكين شرقي نهر الالب .

على ان الحديث عن الثورة الثانية استمر . فكان لا بد للنازية ، ديككتاتورية راس المال الضخم الاحتكاري ، من ان تتخذ التدابير التي توعد بها هتلر خصوم النظام الراهن في خطابه : أي السحق بهمجية وبدون شفقة !

وفي ٣٠ حزيران ، تنفذ هذا السحق بهمجية وبدون شفقة فعلاً ! تنفذ بالمسدسات والفؤوس اغتيالاً ، بدون محاكمات ، تحت أستار الظلام ،

(١) راجع كتاب «المانيا تؤخر الناعة» للصحافي مورر ، طبع سنة ١٩٣٣ ، صفحة ١١٢ ، فتجد كيف ان يهوديا المانيا صاحب بنك في برلين يشرح لحظة مندهشة حوله انه كان معاوناً مالياً مداوماً للحزب النازي .

في مخادع البيوت بين اذرعة الغلمان ، واشترك فيه مسدس ادولف هتلر نفسه — مما اقشعر له العالم المتحضر جميعاً . وسقط قادة الـ (S.A) صرعى . سقط كل من يدور في خلدكم هاجس الثورة الثانية ، ومعهم رومر رئيس الـ (S.A) ! والنازي الان يقررون انهم وطفوا دعائم ديكتاتورية الرايخ الضخم الاحتمكاري الى الابد .

٤ - جرائم الفاشستية : ابارة حقوق الانسان وبنت المرحمة

كتاب لهنري باريس

بعد هذه المحاولة منا للاطلاع على جوهر الفاشستية وفهم نفاقها وحقيقة حركاتها الارتدادية ضد حقوق الانسان - انسان الجاهل - وحرياته الديمقراطية ، ينبغي لنا الان أن نتقدم الى رؤية حقوق الانسان معروكة تحت أقدام الفاشستية تمزقها بمخالبها - وإن كان الشهيد يدمي النفس .

في ظلال الفاشستية الان تقوم المقابر الكثيرة ، وعلى كل قبر لوحة مكتوب عليها اسم الدفين ...

هنا قبر حرية الطباعة والنشر ! يقوم مكانها الكذب والتشويه والتهويل . يزور الشاعر الشرقي الكبير ، رابندرانات تاغور ، روما فتصدر الجرائد ملأى بذكر إعجابه بالفاشستية وأماذيجها . وتاغور في غفلة عن كل ما يجري . حتى اذا اكتشف ذلك ثار ثأره ، وأعلن رأيه الصحيح في الفاشستية ، في جريدة (نوي فراي برس) بفيينا قائلاً في ختام حديثه : « من السخف ان يمز في الوهم اني اناصر في حياتي حركة تحمى حرية التعبير بدون رافة وتوجب

مراعات هي ضد ضمائير الافراد ، وتمشي خلال طريق ملطخ بالدماء من البطش والاجرام الاغتيالي .»

ويعطي السياسي الانكليزي ، لويد جورج ، رأيه في الفاشستية بخطاب كما يلي : « انني لا ذكر كيف سببت الثورة الفاشستية ، ولا تزال تسبب ، في صفوف حزب المحافظين إعجاباً وإطراءً للحركة الفاشستية وزعيمها القوي . إيطاليا ، فردوس أرضي ، حيث طرد أفعى الفوضى عنها ملائكة لابسو قمصان سوداء . يحمون الجنة من رجوع الافعى ! - تلك كانت الصورة منذ سنة . تستطيعون ان تروا الان لانفسكم ماذا هناك . الحرية قد اخمدت تماماً . المقهر ، التهديد ، الاحراق ، المصادرة ، المقتل كلها قد اصبحت اساليب الحكومة ! » .

فكيف يظهر ذلك في الجرائد الايطالية ، كما تذيعه وكالة سنيغاني المزورة الفاشستية :

« صرح لويد جورج ان الاشتراكية ، في ايطاليا بعد الحرب ، كان لها تأثير وخيم على الصناعة . والامة ، وهي في حالة يأس ، قبلت يد المساعدة الفاشستية . انني لا ذكر الغبطة التي وافق بها حزب الاحرار على الثورة الفاشستية وزعيمها القوي موسوليني الامجد . . . »
ويقول برنارد شو الاديب الانكليزي الشهير :

« لقد صنع موسوليني لايطاليا ما صنع نابليون لفرنسا . الفرق فقط انك يجب أن تقرأ بدل « دوق دانقيان » (الذي اغتيل بامر من نابليون) اسم ماتيوقي . »

فيظهر ذلك في الجرائد الايطالية :

« موسوليني ، بدون منزلة نابليون العسكرية ، قد صنع لايطاليا ما صنعه نابليون لفرنسا تماماً . »

...وهنا قبر الحرية الشخصية وتنزيه الكرامة الانسانية عن التعذيبات الجسدية البهيمية ! واي حياة للحرية الشخصية وشراك التجسس والوشاية تمتد الى كل زاوية لا تأمن من العثار به قدم أي انسان . حتى لقد امتد هذا الشراك من داخل البلاد الى خارجها لملاحقة المهاجرين والشرذمة من فظائع الفاشستية . وعلى ذكر هؤلاء يقول السنيور (السندرو ملخيوري) نائب السكرتير الفاشستي العام :

« يجب ان يصادوا كالوحوش ، كالفهود . يجب ان نضطهدهم بدون رأفة لنجعل حياتهم مستحيلة بقطع النظر عن المكان الذي يعيشون فيه . أعتقد انه من الضروري ان نجعل كل بلدية تلتصق في قاعة المدينة العامة لائحة بأسماء المهاجرين ، وعناوين عائلاتهم في إيطاليا . ومن المطلوب ايضاً ان نجعل هذه العائلات ترغم مهاجريها على العودة ، وإلا فيقعون تحت خطر العقاب الصارم . ان المواطنين هنا إذا جعلوا عائلات المهاجرين عرضة لهجمات العقاب والانتقام ، فان ذلك يضطر أولاد الزنى ان يمتنعوا من كل عمل نفعي ! » .

فاذا كان هذا شأن الفاشستية مع خصومها المشردين الى خارج بلادها ، فما هو شأنها معهم في داخل البلاد ؟ لقد كثرت ضحاياها حتى وجد أصحاب الضمائر التي يهزها حب الانسانية ضرورة لتأليف لجان الدفاع عن هذه الضحايا . يساهم في هذه الاجان رهط كثير من عظام كتاب العالم ورجال الفكر . وهذا نص كتاب طويل نسوقه برمته لما فيه من المعلومات المنيرة عن صفة الفاشستية الهمجية ، كتبه الاديب الانساني الطيب الذكر (هنري باريس) وهو رئيس « لجنة الدفاع عن ضحايا الفاشستية » الى السفير الايطالي في باريس :

« أنباء فاجعة لا تزال تبلغنا من السجون الايطالية زيادة عما

بالغنا ، وقائع تزيد فينا اليأس بخصوص مصير ٦٠٠٠ سجين من معارضي
الفاشية تعرف من مصادر مختلفة وحرية بالثقة انهم مقدوفون في
السجون في ايطاليا أو منفيون الى الجزر . من كل مكان ، من ايطاليا
تحيئنا المعلومات مثبتة وراء الشك حقيقة ان التعذيب قد أصبح جزءاً
من نظام السجون لدى موسوليني . وفي ما يلي عدد ضئيل من أجد
الحوادث التي يطلب الرأي العام العالمي ، الذي نعبر عنه ، كشفها
لوضح النور :

« في ميلان عثر البوليس في غرفة ، في ١٩ « فيا كبونيو » ، على
مستودع للمجلة الماركسية « ستاتو اوبرابو » . وكان المحررون قد
قرروا ان يطبعوا هذه الصحيفة سراً بسبب فتك موسوليني بجميع
الصحف المعارضة للفاشية . فادى ذلك الى اعتقال (فرنسيسكو
ليوتي) صحفي ، و (بوزبالي) عامل ، بتهمة توزيع المجلة معاً . واعتقل
بواب الدار التي تقوم فيها الغرفة (الطونيو سانغيتو) وامراته ايضاً .
طبقاً لوضع البوليس ، نحن نعرف أن بواباً لا يمكن ان يعين في
وظيفة ما لم يكن شخصه مرغوباً فيه لدى السلطات ، وهو مأمور
ان يتجسس على النازلين في بنايته ، ويستطلع ميولهم السياسية ويعطي
معلوماته للبوليس . واذا كان قليل العناية وفاته شيء من ذلك فانه
يعتبر شريكاً في الجرم .

« حسب المؤلف ، وضع البواب سانغيتو وامراته والسجينات
الآخران رهن التعذيب . لقد شاء البوليس أن يحصل على أسماء
آخرين لهم شركة في القضية . على ان البواب لم يستطع ان يقول
شيئاً ، لانه لم يكن يعلم شيئاً . وبدنا كان ليوتي وبوزبالي فتيين قوين
يستطيعان تحمل التعذيب . كان سانغيتو ضعيفاً ، ومتقدماً في السن . . .

بعد مدة أعلمت وفاته ! متى حدثت هذه الوفاة ؟ في أي ظروف ؟
ولأي سبب صدر الامر بدفنه سرّاً دون السماح لعائلته أن تطالب
بفحص الجثة ؟ ولدينا علم ان امرأة سانغيتو ، التي كانت لا تزال في
الحبس ، جنت جنونا عند تلقي خبر موته . أيمن أن تكون وقائع
كهنه لا أساس لها ؟ ؟

« وهذا نموذج آخر من الفظاعة التي لا يكاد يعقل وقوعها .
فقد جاءنا من ميلان ان مدير المحطة في سندريو (السنيور بيرولا)
الـ عاينه القبض لانه كان على اتصال مع جماعات معارضة للفاشية
في ميلان وبرسيا . فحمل من سندريو الى ميلان حيث استخدمت
كل آلة من آلات التعذيب طمعاً في استخراج قرارات منه بالقوة
يرغب فيها البوليس . . . بعد شهر انبثت عائلة السجين انه شق
نفسه في حجرته في السجن . وهذا تكرير تماماً لقضية سوزي ،
ويدلنا ان خبر الانتحار الذي اذاعه البوليس انما هو صيغة رسمية
فقط لوصف ميتة كل سجين يتحطم تحت ثقل التعذيب . وقد حرم
فحص الجثة وحضور الدفن . والحقيقة ان الضحية دفنت بصورة سرية
جداً ، خلال الليل ، قبل أن انبثت العائلة بخبر الموت . اي داع
يمكن أن يكون لمثل هذا السلوك سوى الحرص على تغطية جريمة ؟
ان السلسلة الفظيعة من المعلومات لم تنته بعد .

« لقد تلقينا من جنوى اخباراً رهيبة . وردتنا الافادات ان
سجون تلك المدينة تستخدم آلات الحمل الانسان على الكلام قهراً ،
آلات هي طبق الاصل من عهد ديوان التفتيش .
« ونألف (الآلة) من حجرة مجهزة تجهيزاً جيداً لاجراء أشد
التعذيبات إيلاماً . ولقد لبس أحد السجناء (طقم) هذه (الآلة)

الفضيحة مؤخراً واسمه ريولي صانع احذية من كوربكو . نزل به التعذيب الى درجة اضطر معها الجلادون ان ينقلوه سربعا الى مستشفى السجن . ولكن بعد مستشفى السجن ماذا ؟ سكوت ! لا شيء يعرف عنه الان . ويقال انه هو الآخر قضى نحبه أيضاً . استناداً الى هذه الحوادث التي تطرق مسامعنا دائماً يظهر ان السجون الفاشستية قد تحولت الى مسالخ . وعدا عن هذه الشواهد من الالم القتال والموت - شواهد هي القليل مما يمكن أن يخلص الينا خلال جدران السجون الفاشستية الكثيفة - فان لدينا انباء عن حوادث اخرى من التعذيب تلقي ضوءاً قبيحاً على أساليب القمع والاضهاد التي تلجأ اليها الحكومة الفاشستية .

« سبق لنا الاحتجاج قبلا في موقف ماض على التعذيبات التي تنال السجناء السياسيين المضبوطين تحت طبقات الارض في حجر قلعة برسيا البغيضة ، مدينة وسكن سكرتير الحزب الفاشستي . »
« وان حادثة بولويت المعروفة جيداً . فهو ما زال يعذب حتى اختل . ويعيش الان وراء أقفال أحد مستشفيات المجانين . خا منا الشعور في ذلك الوقت ان تلك حادثة فريدة شاذة من الفظاعة . أما الان ، فالعكس هو الواقع . الواضح اننا امام نظام ، امام جهاز للتعذيب مدار جيداً ، يتلقى الاوامر من موظفين عالين ، ومن منظمة مركزية خلقتها السلطة الحاكمة وهي تنصرف بها . وقد انتمينا الى استنتاج كهذا من حقيقة أن التعذيبات تجري على السجناء السياسيين طبقاً لاسلوب مدبر قبلا ، ومتشابه في كل السجون الايطالية . فضلا عن النخز بالعصي المجهزة في اطرافها بالرصاص المقسّى ، فضلا عن اللكمات وفي الاكف فقايزات حديد ، فضلا عن هذه الامور التي يجري

استعمالها في جميع مراكز البوليس ، فان لدينا المعلومات ان الاساليب الآتية يخضع لها السجناء السياسيون من أجل اضطرابهم لتسكلام :

١ - ضربات تفجر الدم . (حوادث تريست ومونولكو في التي شهرت بها الصحف) .

٢ - استعمال المياه العالية لزج أيدي المساجين فيها استخراجاً للاقرارات منهم بقاء تأثير الالم الجسدي (حوادث ميلان وبرسيا)

٣ - التجويع ، الظلام الدامس ، اللسكات بين الحين والحين (استعملت هذه الطريقة اولا في برسيا ، وطبقتها فيما بعد جميع السجون الفاشستية)

٤ - الحقن بمواد كيميائية من أجل إحداث حالة جنون والحصول على معلومات من السجنين وهو في هذيانه

٥ - وخز الخصي بالدبابيس حتى يبدأ الالتهاب الخطر (برسيا وجنوى)

٦ - شد الخصي في بعض الحوادث بالسلاسل او الحبال وتزبيد الالم بضغط مستمر (روما ، نابولي ، جنوى)

٧ - غرز الدبابيس عميقاً تحت الاظافر (تورين ، جنوى ، ميلان)

٨ - حقن من محلول صبغة اليود يصدر عنها التهابات مؤلمة في الامعاء (بروجيا)

٩ - حز اللسان بالمدي

١٠ - تقطيع الشعور الخاصة بسن البلوغ ، الشعور حول أعضاء التناسل (كما وقع في مونفالكون ، وميلان للسنيوريتا يانور انضوتي التي ارسلت الى المعالجة الطبية محتملة من الالم)

١١ - استخدام الحشرات لانتزاع اقرارات من المساجين

السياسيين ، كما في فلورنسا حيث يضعون خنفساء سوداء تحت قدح زجاج على بدن الضحية ثلاث أو اربع ساعات حتى يشكلم .
 « إن هذه الاعمال التي سردناها هنا تعطي فكرة ناقصة جداً عن المصير الذي ينتظر السجناء السياسيين . والواقع ان التعذيبات لا تجري منفردة أبداً ، بل على العموم تجري عدة تعذيبات معاً حسب طاقة السجن على التحمل ، وحسب اهمية المعلومات المطلوبة .
 وانه لمن المستحيل إخفاء حقائق كهذه الى وقت أطول ، وأن فظاعة هذه الاعمال لتثير الغضب في الرأي العام العالمي في كل امة متمدنة .
 فباسم الانسانية المهانة اننا نصر على السفارة الايطالية ان تأخذ عريضتنا بعين الاعتبار .

« اننا نطلب إطلاعنا على الحقيقة كلها فيما يتعلق بالتعذيبات التي شمرنا بها ، وفيما يتعلق بالحوادث التي تسببت عنها الوفيات من جراء التعذيب كما في حادثة غاستون سوري واكوسينيا سانغيتو ، وبيرولا ، وريولي ايضاً على الأرجح (مع اننا نأمل أن يكون بقي حياً)
 « ونطلب لجنة تحقيق علمية تزور السجون وجزر النفي حيث يحتشد ما يناهز ٦٠٠٠ سجين سيامي

« هذه العريضة المرسلة اليكم ثانية ، باسم المدنية ، ناشئة من طلبات ضمائرنا التي لا تسكت بصفتنا اناساً أحراراً . نريد أن نضع حداً لهذه الحلقات الدامية من التعذيبات ، واذا كنتم تصرون على التزام الصمت فانكم تنجحون فقط في تمهيج حركة الاحتجاج الغاضبة ضد الفاشستية في جميع البلدان التي تدري بأعمالها الوحشية ! » (١)

(١) النص مأخوذ من كتاب : يمكن هذه الاشياء أن تكون للصحافي جورج سلدس ، طبع سنة ١٩٣١ صفحة ١٦١ ثايلي

هذه هي الفاشستية ومخالبها الفتاكة في ايطاليا . فكيف هي في المانيا ؟ انها ليست أقل فتكاً من الفاشستية الايطالية على كل حال ، ولعلها أفك . ان معتقلات النازي هي موضوع لوقوف شعر الرأس . يكفي أن نقرأ كتاب اندريه مالرو الصغير « زمان القرف » حتى ندرك هذا ، حتى نعلم كيف بعذب السجناء السياسيون وكيف يقتلون في أغلب الاحيان وبعان موتهم على الملأ لا بصورة « انتحار » كما في ايطاليا بل بصورة « إطلاق الرصاص عليهم وهم يحاولون الفرار » . الهجمات على الدور ، والتقتيلات التي ارتكبتها النازية ضد خصوم الفاشستية ، وضد بعضهم سنة ١٩٣٤ بالفووس والمسدسات والخناجر الخ . خلال خمس سنوات من حكمهم قد استطاعت جعل هذا الزمان « زمان قرف » فعلاً كما يدعوه مالرو . فلنقرأ ما تقول (المانشتر غارديان) عدد ٣٠ نيسان سنة ١٩٣٣ :

« الارهاب الاسود كل يوم ينقلب اسوأ من يوم . لقد استحال الى حرب إبادة يشهرها (القمصان السوداء) على كل اليساريين . جميع دعاة النقابات وحزب الاحرار ودعاة السلم والاشتراكيين والشيوعيين ودعاة التفاهم الاممي الذي كان لهم شيء من البروز بشكل منظمين أو كتاب أو خطباء ، ولو كان ذلك في فرع محلي أو في قرية أو في شارع ، يقعون الان في خلال القسم الاعظم من المانيا تحت خطر الطرد او التعذيب البدني او السجن . واضطهاد اليهود إنما هو حملة فرعية في هذه الحرب . ومن يلبث أميناً لمبادئه — وهناك أشخاص كذلك — فان النازي يعتبرونهم متطرفين وان كانوا معتدلين ، وثواراً وان كانوا طلاب إصلاح فقط . ينطبق هذا أيضاً على الذين جاروا النازية وهم تحت خطر التضحية بأنفسهم ، أو بعد أن ضعضع

الاستنكيل معنوياتهم ، واكنهم احتفظوا رغم ذلك بمبادئهم الاولى .
ان ثمن البطولة لباهظ جداً ، فلا لوم على أحد إذا لم يكن بطلاً .
مع أن من يكن بطلاً يصبح موضوع المهابة . ولا شك ان كتلة
الابطال الحديدية التي تتكون الآن ستفرض نفسها بقوة يوماً ما .

« في أيام الارهاب الاولى - أي في النصف الاول من آذار -
كانت صراخات المعذبين تسمع في الاسواق أمام بعض « البيوت
السوداء » ^(١) ولكن قد اتخذت الحيلة للوقاية من هذه العانية فلا
صوت الان يبلغ آذان العالم الخارجي . وكنتم السمر المطلق مفروض
فرضاً قهرياً على كل واحد في طول البلاد وعرضها . ويضطر المعذبون
الى اداء اليمين انهم لن يفوهوا بكلمة واحدة ولو تحت طائلة العقاب
بالموت أو التعذيب من جديد . والكثيرون منهم يرغمون حتى على
إمضاء عبارات نفيدهم انهم عوملوا معاملة حسنة !

« إن الارهاب مخيف وعدد الضحايا كبير ، الى درجة انه
لا يمكن إبقاء الامر سراً ، سواءً أكان ذلك في المانيا أو في الخارج .
الالوف العديدون الذين ترى ظهورهم مقشرة ورؤوسهم معصبة
ووجوههم مخدشة وعظامهم وأسنانهم مكسرة ، والذين يضطجعون في
المستشفيات وفيهم طعنات السكاكين وثقوب الرصاص او هروس
فظيعة ، والذين يجوسون خلال الاسواق . كل هؤلاء شواهد كافية .
وإذا سئلوا عما بهم ، فانهم لا يجيبون بأكثر من نظرة ارتعاب » .

في ظلال الفاشستية لا تحصى اللوحات المراكوزة على القبور . نمضي
في تعديدها ، فنجد زيادة على ما ذكره ، لوحة مكتوباً عليها هنا

(١) مراكز أصحاب القمصان السوداء في المانيا .

قبر الثقافة والادب قبر الفكر والفلسفة^(١) ٠٠٠ في ايار ٦ سنة ١٩٣٣ ، وقعت حوادث في المانيا لم يشهد مثلها العالم منذ القرون الوسطى .
حوادث مخزية تضع يدنا وضعاً للحمس حقيقة قتل الفاشستية للعالم والثقافة عموماً . في ٦ ايار هجم النازي على « معهد البحث الجنسي » الذي يديره الدكتور ماغنس هرشتيلد ، علامة الابحاث الستاسلية . وكان قد جمع في معبده مجموعة ربما كانت اكمل مجموعة في ادب الجنسيات في الدنيا . جمعها صاحبها لتساعد معبده على معالجة المشاكل

(١) ونستطيع أن نقول: ان هذا أمراً اشتهرت به الفاشستية لدى الناس واصبح غير مشكوك فيه عندهم . فها انا نأخذ الاهرام عدد ١٣ — ١٢ — ١٩٣٧ فنقرأ فيه نقلاً عن جريدة « الانباء الثقافية في جنوب افريقيا » وهي جريدة تنطق بلسان جمعية المدرسين ، ما يلي :
« لما كان الاساتذة والمدرسون حفظة على العلم ، واداة لنقل الثقافة الى الاطفال والشباب فانهم يقفون اليوم امام تحول مخيف سواء احبوه ام لم يحبوه ، سواء ادركوهم ام لم يدركوهم .

وسيكون عليهم ان يختاروا بين امرين ، فاما ان يدعوا الفاشستية تتغلغل في البلاد بغير كايح ، وتحدث فيها احداثها التدميرية ، واما ان يقفوا في سبيلها ويعارضوها بكل قوة ونشاط .
وقد لا يكون من المستطاع ، او من المرغوب فيه ، ان يحارب الاساتذة الفاشستية في الميدان السياسي ، ولكن من واجبهم ، ومن حقهم الخاص ان يحولوا دون تطفلهم بالدخول في نطاق الاراء ، وفي حيث نزرع البوم والمبارف

ان انتصار الفاشستية معناه انتصار العنف ، والتعصب الذي لا يرف التسامح ، بل معناه انتصار الرق في مظاهره الادبية والثقافية والجنسية ، والقضاء على الثقافة والمدنية .
فهي تنتشر الان سريعاً فاذا عسى يستطيع الاساتذة فعله لوقفها من قريب ؟ .

يجب على هؤلاء الاساتذة والمدرسين ان يعلموا الطلبة والتلاميذ ان يقدروا بالشجاعة ، وان يقدروا ، ويسالوا ويشكوا وان يطلقوا « الحرية الكاملة لقوى التخيل الكامنة فيهم »
ولقد اصاب هؤلاء الاساتذة ، فان الفاشستية لا يسد طريقها شي كاترية على الاستقلال الفكري .

المتناسلية وإيجاد تربية جنسية مضبوطة يشكو فقدها الشباب ،
 وتورطون في أغلاط وتطرفات ربما لوثنهم بالامراض وشوهت مستقبلهم
 أو قضت عليه قضاءً مبرماً . جاء النازي هذا المعهد صباحاً ، وتفخوا في
 بوق من أبواق الهجوم ، وكأن في آذانهم صدى قول ماريتي الفاشستي
 الايطالي المعتوه ، المحسوب على الشعر : « لنانية اتلاف المتاحف
 وإحراق المكاتب » ! ثم اندفعوا الى داخل المعهد فجروا من مكتبته
 الشمسية الوراق من الاسفار والكراريس والرسوم ، كما وقعت عليها أيديهم ،
 وقذفوها في سيارات الشحن التي معهم . وعادوا بعد الظهر فأكملوا
 عملهم الهمجي ، وخبروا البناية وأتلفوا سجلات تحقيقات علمية قيمة
 بعضها يخص المعهد والدكتور هرشفيلر وبعضها يخص اللجنة العالمية
 للإصلاح الجنسي !

وما وقع لمعهد الدكتور هرشفيلر وقع لمكاتب كثيرة في طول
 البلاد وعرضها .

ماذا حدث للكتب التي صودرت ؟ في ١٠ ايار أقيم احتفال
 همجي نشك أن العالم شهد له موازيا حتى في القرون الوسطى . في
 ذلك اليوم ، حوالي نصف الليل ، اجتمع في الساحة الكبيرة في
 « اوتردن لندن » مقابل جامعة بولين ما يقرب من أربعين ألف نازي
 زحفوا زحفاً الى المكان ، وفي أيديهم المشاعل ، وبمشاعلهم أضرموا كومة
 عظيمة من الحطب كانت مجهزة هناك تربيعاً ١٢ قدماً وعلوها خمسة
 أقدام . فلما تصاعدت السنة الذهب ، والمطر ينهمر رشاً خفيفاً ، أخذوا
 يتقدمون من النار ويقذفون لها بما يحضنون بين أذرعهم من الكتب .
 مؤلفات لجاك لندن ، ابتون سنكلير ، هـ . ج . ولز ، هفلوك اليس ، اندريه
 جيد ، اميل زولا ، مرسيل بروست ، لينين ، ستالين ، مار كس ، انكلز ،

«ميل لودفيج» أربك ريمارك «توماس» البرت انديشتين وغيرهم وغيرهم - مؤلفات اودع فيها اصحابها ذوب ادمعتهم وقلوبهم ودروساً من التاريخ وأشعة أمل للانسانية «فجاءها النازي همج الفاشستية وذروها رماداً» لماذا تتييس الثقافة تحت جو الفاشستية الخائق . لان الثقافة ذات القيمة لها مصدر واحد لا يتغير «سواء أكانت هذه الثقافة علماء أو ادبا أو فلسفة . ذلك المصدر الحي الغزير هو : حب الرقي والسعادة بجميع الاشكال «فرديا واجتماعيا» اقتصاديا وسياسيا «ماديا ومعنويا» . حتى انطفأت جذوة حب الرقي والسعادة في صدر الانسانية «انطفأت الثقافة معها . . . لان الثقافة ذات القيمة إنما هي رؤيا أو خطة تمكن الانسان من تقرير مصيره بيده «أي من السيطرة على الفواعل التي تؤثر في حياته ومنعها من أن تتلاعب به على هواها «فواعل طبيعية واجتماعية وسياسية واقتصادية . الثقافة مثلا تقوي الانسان على امتلاك زمام الطبيعة بمكتشفاتها العلمية ولا تتركه عرضة لتقلبات الطبيعة وطوارئ المصادفة .

والفاشستية لا تؤمن بالرقي والسعادة . ولا تسمح بتشجيع حب الرقي والسعادة «فلذلك نراها ثقيلة بغیضة على الثقافة تجففها من ينبوعها وتبيدها إبادة» .

يقول موسوليني : «نحن فوق كل شيء لا نؤمن بالسعادة» بالخلاص» ويقول أيضاً : «في الحياة الحقيقية لا توجد سعادة» وأيضاً «الفاشستية لا تؤمن بإمكانية السعادة على الارض!»

ويلعن أحد العسكرين النازي - مثلاً نفسية النازية كلها - تلك الروح المستيرية التي تزعم «ان البشرية خلال ملايين السنين

كانت على طريق صاعدة مزينة عن يمين وشمال بشارات الرقي « ثم يتساءل » كيف رسخت هذه الفكرة ؟ من المؤكد ان كل واحد يعرف من تجاربه ان الحياة دائرة وليست خطاً » .

يريد هذا الفاشستي الاجوف النفس من كل اعتقاد بالترقي أن يحوفنا من اعتقادنا بريقنا ويقنعنا ، ليس فقط ، اننا ان نتقدم في المستقبل بل اننا لم نتقدم في الماضي ، ويدلنا ان الحياة إنما هي دائرة لا خط ، وأننا في حياتنا أشبه بالكبدشان الكادحة المقطورة حول فاعورة في حلقة ، هي الحلقة ذاتها أبداً دائماً ، في دوران مستمر لا ينقطع . . .

أجل ان حركة كالفاشستية ، تجزم هذا الجزم بان السعادة والرقي إنما هي وهم ، لا يمكنها ان تولد شيئاً من الثقافة الصحيحة التي لا تصدر الا عن شغف الانسان بالسعادة والرقي ، وعن إيمانه بإمكان نيلهما وسعيه الخثيث من اجلهما . الفاشستية لا يمكنها ان تولد ثقافة — اللهم إلا ثقافة الهرب من الحقائق وعدم التعرض لمشاكل الحياة الواقعة (من شعوزات موسوليني ان : ليس من الضروري ان تكون هناك حقيقة !) وذلك ما لا يمكن ان يعد ثقافة صحيحة لائقه بحال من الاحوال ، بل هو اتجاه بعقول الناس وعواظهم عن الكفاح ضد المظالم والنكبات الواقعة بهم الى تضييع نشاطهم وفعاليتهم بألاع وخيالات . وتستطيع أن نعتبر صدق ما قلناه بنظرة واحدة الى حقول الثقافة المححلة في المانيا وايطاليا اليوم ، بالقياس الى خصوبتها في فرنسا الديموقراطية .

« ان العصر الفاشستي سيشهد انتهاء العمل العقلي » يقول موسوليني : « الزعماء الحقيقيون ليس لهم أي حاجة في الثقافة » يقول

غورنغ • والعمل العقلي هو فعلا في حكم المنتهي في إيطاليا الفاشستية •
وخير أثر ادبي ايطالي حديث بشهادة النقاد الكبار ، هو رواية « الحياة
في فونتمارا » للكاتب سيلوني وهي رواية ضد الفاشستية • والثقافة والعلم
في ألمانيا النازية لا حاجة للزعماء فيهما حقاً • وهذا الخبر الذي نشرته
جريدة الاهرام (١٧ - ٦ - ١٩٣٦) دليل كاف :

« منذ استولى جماعة النازي على الاحكام في ألمانيا سنة ١٩٣٣
الى اليوم تناقص عدد الطلبة في الجامعات الألمانية ٣٨ في المئة • هذا
ما نقوله جريدة دويتشي الجيني تسيتونغ • وكانت التناقص اكثر
وأظهر في عدد طالبي الدخول في هذه الجامعات • فبينما كانت عدد
هؤلاء الطالبين الجدد ١٤ ألفاً سنة ١٩٣٣ ، واذا به ينزل في العام
الحالي الى سبعة آلاف • والجامعات الصغيرة تشكو هذا التناقص
اكثر من الكبيرة • مثال ذلك : ان جامعات كييل وماربورج وليبزيك
تحتوي الان على نصف العدد الذي كانت تعج به سنة ١٩٣٣ (١) »

(١) على سبيل المقارنة يحسن ان نقرأ الخبر التالي من الاهرام ايضاً :
في انباء موسكو ان مدارس السوفيات الابتدائية والثانوية فتحت
ابوابها لجيش الاطفال الذين بدأوا الآن سنتهم الدراسية الجديدة • ونقول
شركة (ناس) ان عدد التلاميذ الصغار في المدارس السوفياتية بلغ الان
ثلاثين مليوناً • وهو اربعة اضعاف عددهم قبل الحرب العظمي • وقد عملت
السلطات على اعداد كل ما تحتاج اليه السنة الدراسية الجديدة • فبنت
مدارس جديدة وأصلحت المدارس القديمة ، وجهزت المعامل بكامل ادواتها •
وأضافت الى المكتبات كتباً جديدة • وقد بدأ ما يزيد على خمسة ملايين
من التلاميذ القسم الاول من السنة الدراسية • واعطي جميع الاطفال -

بكلمة مختصرة — ان الديمقراطية ، والحقوق والحريات التي تنبثق
 زاهرة منها ، هي الات جميعها جثة هامدة تحت ظل الفاشستية
 « الديمقراطية قد ماتت ! ؟ » يهتف موسوليني مبتهجا « الآن يجب
 ان نتلف جميع آثار الديمقراطية ، خصوصا طريقة اخذ الاصوات
 وعقد القرارات على اساس الاكثرية كما لا يزال الامر في المجالس
 البلدية ، في التشكيلات التجارية وفي مختلف اللجان » يقول هتلر .
 « اننا نمثل المعسكر المعاكس لكل الدنيا التي تدين بمبادئ ستة
 ١٧٨٩ الخالدة » ^(١) يصيح موسوليني . « سنة ١٧٨٩ ستمحي من التاريخ »
 يقرر غوبلز . « اننا نبصق على الحرية » يصرخ الشباب النازي كما لقتهم
 النازية التي تمت تربيتها كلها هو انساني أبي وجميل في النفس الآدمية
 وتزرع مكانه غريزة الاتقياد ، كما في المواشي ، وغريزة الاقتباس كما
 في ضواري الغابات .

الديموقراطية تلفظ انقاسها بضغط الفاشستية ، ولا تعيش
 إلا ديكتاتورية الراسمال الضخم الاحتكاري — ديكتاتورية يكون
 عبيدها واداة تنفيذها شخص طاغية دموي متغطرس ماهر في التمثيل
 يدعي (ايل دوتشي) او (درفير) الخ . يبرز على رأس الدولة وينحصر
 في ذاته كل شيء ، حتى الشرائع ، ويحرم المتهمون حق الدفاع عن
 انفسهم أمام بطشه واوتوقراطية ، يبرز هذا الشخص على رأس
 — هدايا لطيفة يوم دخول المدارس . والمدارس الجديدة تبنى على مساحات واسعة
 وقد بنت السلطات السوفياتية أكثر من ١١٦٥٠٠ مدرسة في خلال الثلاث
 سنوات الماضية . (نقلا عن الاهرام في ٢١ ايلول سنة ١٩٣٧) .
 (١) أي : مبادئ « حقوق الانسان » ، التي اذيعت سنة ١٧٨٩ .

ديكتاتوربة الرأسمال الضخم الاحتكاري ، ويصرخ على مسامع الشعب صراخ (ايل دوتشي) : « لا شيء وراء الدولة • كل شيء داخل الدولة ، لا شيء خارج الدولة ، لا شيء معارض للدولة » ! وصراخ (درفير) على نسق دجالي الاوتوقراطية القديمة الذين عرفناهم يدعون لأنفسهم التفويض من الله والمسؤولية أمامه وحده : « من هو مولود ايكون ديكاتوراً لا يُدفع إلى امام ، بل هو يدفع ذاته ... من يشعر بنفسه مدعواً لحكم شعب فلا حق له أن يقول : عندما تحتاجوني ارسلوا إلي فأجبي ... » مغزاه : (درفير) يريد حكم الشعب الانساني سواء أراد الشعب ذلك أم أبي ، لأن (درفير) يشعر بنفسه مدعواً من الغيب لذلك الشأن ، ومخلوقاً ليكون ديكاتوراً !

وحول الطاغية مطبلون ومزمرات له يمثلون معه أمام الشعب روايات صغيرة مضحكة للذي يفهمها ، ويحقنون الشعب بتهويلات وخرافات من عظمته المتناهية • نذكر الان رواية صغيرة منها مثلها موسوليني مع موظف فاشستي عزله ثم استرجعه ، وقال له : « طاعتك هي الطاعة ! انصرفت ، انا أمرتك ان تنصرف ! قبلت المسؤوليات التي عهدت بها اليك • اليوم كما في الامس • غداً كما في اليوم • هكذا تكون خدمة الفاشستية ! هكذا تكون خدمة الامة ! هذه هي الامثلة التي يجب أداؤها للشعب ! » ونذكر قليلا من التهويلات والخرافات التي يذيعها الفاشست الايطاليون ، والنازي الالمان عن موسوليني وهتلر : « موسوليني لا يخطئ » ، « هتلر وحيد ، هكذا هو الله ، هتلر مثل الله ! » - الى آخر هذه العبارات المقيمة التي تهين العقل البشري والاياء الانساني •

٥- الشعب المحنوق ، كل شيء لحروب النهب والاستعمار

والشعب في حكم الفاشستية فقير تنهب أتعابه نهباً ، وجائع يطعم
سفسطات طنانة^(١) . انه لم يفقد حقوقه وحرياته الديموقراطية ، ويتمتع
بشيء من الرخاء حتى يكون له بعض العزاء عما فقد ؛ بل هو لم يسلب
حقوقه وحرياته الديموقراطية إلا لان الفاشستية تريد سلبه رخاءه .
وينهض موسوليني مهتئاً إياه ، بكل وقاحة ، بأمر كالذي يلي :

« لحسن الحظ ان الشعب الايطالي لم يتعود أن يأكل مرات

(١) كالسفسطة الاتية من فم الدوتشي : « ان الفاشستية ترفض فكرة
السعادة الاقتصادية التي تجعل الناس بهائم لا يطعمون في غير شيء واحد :
الاكل والسمن ! » والظريف ان الدوتشي نفسه هو ناظم تلك القصيدة
التي تكاد تؤله الخبز - وحق للخبز ان يكون موضوع التآليه في مثل النظام
الفاشستي لشدة ندوره بين ايدي الشعب والقصيدة هي هذه : « عاشق الخبز .
قلب البيت ، طيب المائدة ، مرور الموقد ، احترام الخبز ، عرق الجبين ،
كبرياء العمل ، قصيدة التضحية ، سبّح الخبز ، فخر الحقول ، عطر
الارض ، وليمة الحياة ، لا تبذر الخبز ، ثروة الوطن ، أحلى عطايا الله ،
اقدس مكافآت العمل الانساني » ومع هذا فتبلغ وقاحة الفاشست والنازي
أن يزعموا اننا نحن جماعة مادة ، نريد جعل الخبز معبوداً للانسان . وكل
ما نريده ، في الحقيقة ، هو ان نخلص الانسان من الركض الدائم كالكلب
وراء رغيته ، حتى يستطيع ان يجد النشاط والفراغ لاعمال سامية ترضي
مطامحه الانسانية وتحرره من بهيميته ؛ لاننا ان كنا نعلم ان الانسان لا يحيا
بلا خبز ، فنحن نعلم ايضاً انه لا يحيا بالخبز وحده !

جملة في النهار ، ولان له مستوى منقطعاً من المعيشة فهو أقل شعوراً بالألم والعوز .

وينهض غورنغ ، الجنرال النازي السفاك مبذر ما يسد عوز بضع عائلات على مشروبه من المورفين قائلاً : « المدافع أهم من الزبدة » ؛ متشدقاً بمثل هذا الكلام الفارغ ذي الضجة^(١) : « نحن نصنع التاريخ لا زبدة ! » (ما شاء الله) .

الفاشية تفتس الشعب تفتيساً . تمنعه حربة السقول والطباعة والنشر والتنظيم في سبيل الدفاع عن نفسه ، وتمنعه حتى أن يتمم كلمات التأفف^(٢) . وهي تدهور اجوره ومداخيله ، وتطرحه في محالب البطالة ، وتبهظه بالضرائب حتى يضطر موسوليني نفسه ان يصرح : « ان ضغط الضرائب قد بلغ الحد الاخير ! » . ومع ذلك فللفاشية الوقاحة أن تدعي انها خلقت إخاءً وسلاماً بين طبقات الشعب .

ذئاب المجتمع ، ذوو أظافر وأنياب الرأسمال الضخم الاحتكاري ،

(١) الحق ان اكثر كلام الفاشية ينطبق عليه قول المعري المأثور في شعر بن هاني الاندلسي : « اني لا سمع جعجعة ولا ارى طحناً ! »

(٢) منع الناس من تمتع كلمات التأفف في ظل الحكم الفاشي شيء صحيح بمعناه الحرفي ، لا المجازي فقط . ان امرأة من (مانز) Mainz في المانيا النازية سمعت تقول : « الحالة لن تصير احسن ! » فحكم عليها ان تجيء يومياً الى مكتب رئيس المجلس البلدي وتكرر : « كل يوم هو احسن من سابقه ، وسيصير احسن فأحسن » . فتأمل . . . من كتاب : « الديكتاتورية النازية » ، لفرديريك شومان ، صفحة ٤٢٥ .

قد افترضوا حملانه ، وتسعي الفاشستية ذلك اخاء وسلاماً ، وأي اخاء وسلام ؟! أليس الاصح :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
كما يقول الشاعر العربي ؟ أليس الأصح أن الفاشستية باضطهادها
للشعب ، ومحاربة طغاة المجتمع ، تجعل نشوب حرب اهلية فظيعة محتماً
عندما نتاح الفرصة ؟ ان موسوليني يقول بكل صراحة : « إما أن نمتد
وإما أن نتفجر » — اي إما ان نحارب حرب غزو ضد غيرنا : الحبشة أو
اسبانيا مثلاً ، واما ان تندلع نيران حرب أهلية بيننا . ويقول أيضاً :
« نحن على نقطة بحيث اذا غفلت عين الدولة أربع وعشرين ساعة ،
فان مهلتها تلك تكفي لايقاغ خراب ! » وما لنا لا نقول ان الحرب
الاهلية واقعة فعلاً في ظل الفاشستية ، يرغم تفتيسها للشعب . والا
فما هذا الغض لكل منظمات البروليتاريا والشعب الحقيقية ، واستبدالها
بمنظمات فاشستية ذات أسماء غرارة ^(١) . ليس للشعب كلمة فيها ^(٢) .

(١) مثلاً — ألقت الفاشستية منظمة للعمال سميتها : « مأمورية العمال »
فخاف اصحاب الاعمال أن تكون هذه المنظمة آلة دفاعية للعمال ضدهم ،
فصرح موسوليني لرئيس « الاتحاد الصناعة » السنيور بني : « اني اؤكد
للسنيور بني انني ما دمت في دست الحكم ، فان اسيااد العمل لن يكون لهم
شيء يخافونه من مأمورية العمال » — جو هو ، دستور الفاشست للعمل ،
« مجلة الاحياء » ، عدد تشرين ١٩٢٧ .

(٢) هذا عامل يكتب الى احدى الجرائد مبدئاً قيمة منظمات العمال
الفاشستية : « أنا المشترك دائماً في نقابة صناعتي لم نتح لي الفرصة مرة
واحدة أن احثك بمنظمتي ، ان اناقش في الاجتماعات ، ان اعبر عن رأيي
بحرية » — جريدة Universale ، فلورنسا ، ٢٥ نيسان ١٩٣٣ .

لان اعداءه هم الذين يقبضون على مقاليد ادارتها ، ولسان حاله معهم كما قال المتنبى « فيك الخصام وانت الخصم والحكم » ؟ وما هذه الاعتقالات والتفتيات التي تقوم بها الفاشستية بصورة مستمرة ؟ ان حادث (فوبرتال) في المانيا النازية ، سنة ١٩٣٥ : القاء القبض على ١١٠٠ عامل وعاملة متهمين بالعداء للدولة — كاف لنسف كذوبة السلام والاخاء الذين تدعي الفاشستية انها اوجدتها بين طبقات الشعب وكلمة الفيلسوف الروماني القديم ستيكا : « الحكومة الظالمة تبقى في حالة حرب مستديمة » وهي قاعدة يصعب ان يرى لها شاذ .

والآن ، فلنسمع ما قاله السنيور امندولا ، على فراش النزاع الاخير ، وهو من معارضي الفاشستية الذين استعمل عليهم الفاشست حججهم — أي نبايتهم وخناجرهم — كما استعملوها على ماتيموتي فسات من جراء اعتدائهم ؛ قال : « الفاشست الغوا البولمان وهكذا فقدت حريتي في الكلام والغوا حرية الطباعة والنشر وهكذا لم أعد أستطيع أن اكتب . وقتلوني وهكذا فقدت حريتي في الحياة . كل هذا هو لاشي عندي . البلاء الاكبر هو انهم سينتهون بقتل ايطاليا ! »

البلاء في كل فاشستية هو انها ستنتهي بقتل بلادها يوماً ، أي بتفقيرها التام وتجويعها ، زيادة على حرمانها حقوقها وحرابها الديمقراطية .

ولماذا هذا التفجير والتجويع ؟ لماذا يكون من حسن الحظ ان الشعب الايطالي لم يتعود الاكل مرات جملة ؟ لماذا تكون المدافع أهم من الزبدة للشعب الالماني ^(١) ؟

(١) من غرائب حديث « المدافع أهم من الزبدة » في المانيا ما نشرته جريدة الفيفارو ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٦ ، وهي جريدة لا يمكن اتهامها

والجواب هو : ان الفاشستية تضطر الى تفقير الشعب وتجويعه لانها
تخدم على حسابه مطاعم الرأسماليين الضخام الاحتمكاريين ، وتحاول
على حسابه فتح الاسواق امام الرأسماليين هؤلاء - اي انها تحاول
استعماله اداة لقهر شعوب اخرى وإخضاعها لكابوس الاستعمار . وهذا
ما دعاه غورنغ المتاريخ حين قال : « نحن نصنع التاريخ لا زبدة ! » .
الفاشستية لا تنجر حريات شعبها وحقوقه الديموقراطية فقط ، بل هي
تحاول تجريده لنجر حريات شعوب غيره وحقوقها أيضاً . ولذلك يصرح
غورنغ على رؤوس الاشهاد : « إن جميع امكانيات التوفير عند الشعب
الالمانى يجب ان توضع في خدمة التسليح ! » والواقع ان الفاشستية -
وهي حركة هجوم طاغية من جانب الاقلية صاحبة الامتياز وسلطانة
المجتمع ضد المحكومين - لا تبالي في سبيل مطاعمها تستعمل شعبها
اداة تذيب واستعباد غيره ، أم تستعمل غيره اداة تذيب واستعباد له .
وامامنا الطبقة الاسبانية ، صاحبة الامتياز ، قد استعملت فيما مضى
شعبها المرهق تحت وطأة حكمها ضد المراكشيين العرب ، فحكمتهم
وأذاقتهم من العذاب . واليوم هي تستعمل المراكشيين ، عن طريق

بالميل المتطرفة . قالت : ذهبت سيدة افراسية مؤخراً تزور صديقة قديمة
لها في برلين . فقدموا لها في الساعة الخامسة فنجان شاي مع بعض خبز اسود ،
وتأسفوا ان ليس لديهم زبدة يقدمونها . فلما عادت مواظنتنا (أي السيدة
الافراسية) الى بيتها بادرت الى إرسال كيلو من زبدة أسيني الى صديقتها
في برلين . وكان البوليس في هذه الاثناء ساهراً على وظيفته . فلم يصادر
الزبدة فقط ، بل حكم على المرسل اليها بسجن خمسة عشر يوماً « لانها
تكرهت امام الاجانب من حالة البلاد الاقتصادية » .

الخداع والارغام ، وتستعين بالايطاليين والامان ايضا ضد الشعب
الاسباني نفسه الواثب وثبة الجبايرة للانعتاق وتكسير نيره .
الفاشية هي أكل حركة استعمارية . هي الغاء صريح لحقوق
القوميات في التحرر وتقرير مصيرها . تحقن شعبها بوم تفوق دمه على
غيره وتحتقر قوميات العالم - الضعيفة منها على الخصوص - وتجعل
النهش الاستعماري لهذه القوميات والفتك بها اولى مطامعها ، فلا يندفع
أحد من شباب الوطنية التحريرية اذا سمع بالفاشية تنادي على
نفسها بانها وطنية .

« الاستعمار هو ناموس الحياة الابدي الثابت » يدعي موسوليني
(بولوديتاليا) ، كانون الثاني ١٩٢٩ : « اوربا تحتاج الى مواد خام .
يجب ان نجعل الاجناس السوداء تنتج ما نحتاج اليه . فلذلك تحتاج
اوربا الى المستعمرات . الهنود والاجناس الاخرى العميقة اللون
لم تبعت وفودا الى انكيترا تلتمس منها أن تعلمها المشي . ولكن
الانكيتز ذهبوا الى الهند وافريقيا ليعلموا الهنود والافريقيين كيف
يمشون . ذهبوا الى هنالك لان الجنس الابيض (يعني الاوروبي)
مكتوب له ان يكون حاكما بسبب ما لديه من نظرة البطولة الى
الحياة . بأي حق تحصل الامم على مستعمرات ؟ بحق الاستيلاء عليها ! »
يقول هتلر . وفي الخطاب عينه يتطرق الى لوم الامم الاستعمارية وفي
مقدمتها بريطانيا لمحاولتها تسيير مآربها الاستعبادية بمزاعم التمدين
وما شاكل ، فيقول اذا اتبعت الامم الاوروبية هذه الخطة التساهلية
الضعيفة الركب (يعني العصب) فان شعوب مستعمراتها يفقدون
تهيبهم للجنس الابيض ويطرحونه عن ظهورهم . الاجناس السوداء
والصفراء والسمراء (يعني كل من عدا الاوروبيين المستعمرين)

عندئذ يقولون بكل بساطة : اننا لم نعد بحاجة الى اوروبا . واذا دب ديب هذا الوعي ، فان الاجناس الاعمق لونا ، حينما تشتبك اوروبا في حرب عالمية ثانية ، ينتمزون الفرصة لطرد الرجل الابيض من اوطانهم » (٢٦ كانون الثاني ، ١٩٣٦) ويقول ايضاً : العرق النوردي له الحق ان يملك العالم . يجب ان نجعل هذا الحق النجمة التي نرتدي بها في سياستنا الخارجية . »

الفاشية تحلم دائماً باجتياح الشعوب الضعيفة ، باجتياح كل من تستطيع اجتياحه على الاصح . فتعلم النشء الايطالي ان يغني مثلاً : « سنزحف على باريس ونرجع ظافرين حاملين معنا راس فرنسا المقطوع الدامي » فلا حياة اذن مع الفاشية للسلم ، ولا امان للقوميات التي تشتهي ان تعيش وادعة متمتعة باستقلالها . الفاشية هي نقيضة الوطنية التحريرية على خط مستقيم ، ولا يجوز لها ان تنتحل لنفسها اسم الوطنية في داخل بلادها ايضاً ، لان الوطنية الحققة إنما هي التي تعمل على رفاه الشعب المادي وانهاضه المعنوي ، ولا تعركه بأرجلها كما تفعل الفاشية .

٦- المرأة آلة لتوليد الرجال للحرب

بقيت لنا كلمة اخيرة نقولها على عجل وهي : ان الفاشية فوق فظائرها الاولى حركة الغاء تام لحقوق المرأة - المرأة المضطهدة التي مرت عصور لم تكن تعتبر فيها من النوع الادبي ، والتي بدأت في أواخر العهد الديمقراطي الرأسمالي تنسلق اولى درجات السلم من وهدة استعبادها ، وهي تنظر نظرة أمل وابتهاج الى العصر الاشتراكي العتيد الذي يحررها نهائياً . وقد مدت اليها الفاشية يدها

الباطشة فدهورتها من جديد الى حضيضها ٦ وجعلت لها ميزة واحدة فقط زعمت ان ليس اجل ولا أجل منها وهي: « ميزة ارسال اولادها الى الحرب »! يقول غورنغ « المرأة مكانها في عقر الدار واجبها تسليمة المحارب المجهد ».

لتعزيز ما ورد في هذا الفصل عن الفاشستية وللتوسع في فهمها تشير على السقارى بالرجوع الى المؤلفات الدقيقة السقيمة التالية:

1. R. Palme Dutt-Fascism and Social Revolution Martin Lawrence , London .
2. Daniel Guerin - Fascisme et Grand Capital Galliw-ard . Paris.
3. Gaetano Salvemini - Under the Axe of Fascism Gollancz . London
4. George Seldes - Sawdust Caesar. Barker , London
5. Frederik Schuman - Hitler and the Nazi Dictatorship . Hale, london .
6. Robert A. Brady - the Spirit and Structure of German Fascism. Gollancz London.



خاتمة - نحن وحقوق الانسان

== الديموقراطية شعارنا ! ==

١- الموقف العالمي في خطوط عريضة

ضروري أن نجعل أمامنا قبل كل شيء ، حالة العالم الان فيما يتعلق بحقوق الانسان ، وان استدعى ذلك منا بعض التكرير ، كي نستطيع على ضوء تقدير الموقف العالمي أن نكون على بينة من قضيتنا التي نخطي إذا حسبناها منعزلة ، ولم نحسبها مشتبكة بمجرى الامور في العالم سواء أشئنا ذلك أم أبينا ، إذ العالم الان ، بفعل نزوج الثورة الصناعية هذا النضج الهائل قد قرب من بعضه كثيراً واصبح مرتبطاً كله بصلات قوية حتى لتكاد تتأثر كل زاوية منه بما يحدث في الزاوية الاخرى تأثراً مباشراً أو غير مباشر .

الموقف العالمي الان هو : موقف حياة ونمو لحقوق الانسان أو موت وضمحلل . هو موقف صراع بين الديموقراطية الخاصة والاشتراكية من جانب ، والفاشية وديكتاتورية أصحاب الملايين من جانب آخر . نحن نعيش في غمار ثورة تحرير الانسانية تحريراً كاملاً ، اجتماعياً وقومياً من جانب ، ونعيش في قلب الردة الرجعية لاستعباد الانسانية استعباداً كاملاً قومياً واجتماعياً من جانب آخر . والجانبان ، ونحن نكتب

هذه السطور ، يتبادلان الرصاص في اسبانيا والصين ، ونأمل أن تنجح قوى الانقاذ في درء الفواجع التي تهدد العالم .

فيجب أن نعين موقفنا الى أي جانب هو . ولكن على أساس فهم الحالة العالمية هذا الفهم العام لا يمكننا أن نعين موقفنا ونرى بصفاء خطة العمل أمامنا ما لم نفهم حالتنا الداخلية أدق فهم بكل صغيرة وكبيرة فيها .

نحن ابناء لبنان وسوريا وفلسطين والعراق ومصر ، وكل قطر من هذه الاقطار التي تنطق العربية الجميلة ويجمعها اسم الشرق العربي ، تقع في صف خاص بين الامم توسم بالضعيفة وتشمل سلسلة قوميات على درجات مختلفة من القوة والستطور كالصينيين والهنود والاحباش الخ ولكنها جميعا : اما مهضومة الحقوق هضما كاملا ، أو مقيدة الارادة بنفوذ أجنبي عامله السياسة أو الاقتصاد أو المركز الجغرافي . وان ام الارض اليوم (عدا الاتحاد السوفياتي) لتقع في صفين عظيمين يمكن وضع الحد الفاصل بينهما بسهولة : الامم ذات الدول القوية المدججة بالاسلحة من ام رأسها الى أخمص القدم — الامم الاستعمارية — والامم الضعيفة التي نحن منها . وموقف الاولى من الثانية موقف استيلاء واستعمار واستئثار بشكل من الاشكال ، وموقف الثانية من الاولى موقف خضوع وتقمع . ولقد أشرنا سابقاً كيف ان البورجوازية تحتاج الى الاستعمار ، الى إخضاع الامم الضعيفة ، سعيها وراء المواد الخام والوقود لصناعاتها ، والاسواق لتصريف بضائعها ، والمشاريع لتشغيل رساميلها الفائضة .

٢ - البورجوازية تبعث فساداً في مستعمراتها

ولا تعرف فيها الديمقراطية

والبورجوازية في الوقت الذي تهدم فيه الاقطاعية والاتوقراطية وسيادة رؤساء الدين ، وتتسامح بالحقوق والحريات الديمقراطية في داخل وطنها ، ونقض على أساليب الانتاج العتيقة بأساليب صناعية حديثة - في الوقت الذي تفعل فيه البورجوازية جميع ذلك في داخل وطنها نراها في الامم الضعيفة التي تخضعها لسلطانها - أي في مستعمراتها - تتبنى الاقطاعية وشكل الحكم الاتوقراطي وسيادة رؤساء الدين ، وتحارب الحقوق والحريات الديمقراطية وتحصر على استبقاء اساليب الانتاج العتيقة ، وتستخدم كل عصبية من العصبيات السامة - طائفية كانت او عائلية او شخصية وغيرها - التي تمزق شمل القومية ، وتضعف مقاومة الشعب ، وتلعب على مخاوف الاقليات وشكوكها ، كل ذلك لتبقي المستعمرات على مستوى متأخر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ، وترسخ دعائم سلطتها وتمكن كلاليب استعمارها .

البورجوازية الانكليزية تنسى كل شيء عن هذه الديمقراطية التي تتمجد بها في داخل انكلترا عندما تظأ أقدامها أرض مصر والهند وفلسطين مثلاً . واذا هب المصريون والهنود وعرب فلسطين تحت علم الديمقراطية مستعملين حق حزية التعبير مثلاً ، مصرحين بشعورهم الطبيعي نحو غاصبي حريتهم فما نصليهم إلا السجن والمنافي والمشاق . والبورجوازية الفرنسية الضخمة ، التي قلمت من أظافرها الجبهة الشعبية الان ، تقهر مبادئ الثورة الفرنسية العظيمة حينما تجد نفسها

في سوريا ولبنان ، فتلط قنابلها على دمشق ، وتسق قوايين منع التجمهر وقيود الصحافة مما لا يزال ارضاً بغيضاً لنا من العهد البائد .

زبدة القول اننا الان نفيق على أنفسنا وقد عاشت بنا البورجوازيات الاستعمارية . فنجد اننا ضحايا مساوئ ومظالم تعرقل مطامحنا التقدمية . نجد أنفسنا نتأذى كثيراً من بقايا إقطاعية منحلة كان ينبغي أن تكون لو شئت قديماً ، ومن شهوة الى الحكم الاوتوقراطي نتحرك بها صدور من نرفعهم الى كراسي الحكم ، ومن سيادة يتمتع بها رؤساء الدين ولا يستعملونها استعمالاً نزيهاً ، ومن انعدام الحقوق والحريات الديمقراطية ، أو من وجودها كسيحة ، ومن عتق اساليب الانتاج الزراعي والصناعي ، ومن العصبية السامة بشق صورها ، ومن مخاوف الاقليات وشكوكها التي لعبت عليها البورجوازيات الاستعمارية لعباً لئيماً إجرامياً .

فما السبيل لازالة هذه المساوئ والمظالم التي تعرقل مطامحنا التقدمية ونتأذى منها بشدة ؟

٣ - علمنا الديمقراطي الصميعة

لنا سبيل واحد هو الديمقراطية ، ولو بشكها البورجوازي زمان كانت البورجوازية ثورية تقدمية وقبل أن اصبح رجعية كما هي اليوم في عهدا الرأسمالي الاحتكاري تريد اقتباس الديمقراطية ، واعلان الديكتاتورية الفاشستية .

في ظل الديمقراطية تعيش للمواطنين حقوق وحريات هي حقوق وحريات الانسان التي ما زلنا نتكلم عنها ، والتي هي حيوية جداً لنموننا ونجاحنا في كل ناحية من نواحي حياتنا . لان الحريات هي بمثابة

منافذ بروز لقوى نشاطنا المكبوحه التي كبجها الاستعمار المستبد
بسد منافذ بروزها عليها آناً بالسلاح وآناً بغيره .

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحررياتهم تنكسر شوكة
الاضطهاد والتشريد ، وترتفع الاصوات بشرح ما هو جار في البلاد
وبطلب ما هو ضروري من الاصلاح آمنة مطمئنة . فيصير في قدرة
كل عضو من المجتمع أن يكون على وعي مما يدور حوله ، ومما يعوزه
وبعوز امته .

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحررياتهم نستطيع أن نشيد
معقل اقتصادياتنا الذي خربته البورجوازيات الهاجمة علينا بفيض
بضائعها ورساميلها . نستطيع ان نفسح المجال لذوي الاموال ^(١) والهمم
ان يبعثوا نشاطاً صناعياً زراعياً تجارياً ، مع مساهمة الحكومة في بعث
هذا النشاط وفي حماية اقتصادياتنا من أذى المزااحات الاجنبية الشديدة .

في ظل الديموقراطية وحقوق المواطنين وحررياتهم المطلقة على
اختلاف هيئاتهم نستطيع ان ننظم في الف شكل من أشكال
التنظيم : العمال والفلاحون في نقاباتهم ، الشباب في فرقهم الكشفية
والرياضية وحفلاتهم ورحلاتهم وتمثيل الروايات للشعب ، المثقفون في
أنديتهم ومشاريع نحو الامية وإصدار الكرايس والمجلات وفتح غرف

(١) قد يجب القاري : من أننا ندعو الان الى فسخ المجال لذوي الاموال منا كي
يقوموا بالمشاريع مع ما عرفه خلال الكتاب من معارضة شديدة للرأسمالية ، ولا مجال
للعجب . نحن اذا عارضنا الرأسمالية ، فاننا نقارض الرأسمالية الاجنبية الاستعمارية
القوية ، التي تتمتع عندنا بالامتيازات والاحتكارات وتستبد بنا وتهبنا . ولسنا نقارض
رأسماليتنا المستقلة الناشئة الضعيفة ، لاننا في مرحلة تستوجب تعزيز رأسماليتنا وحمايتها اذ
بذلك ينض وطننا ويكتسب مناعة كيانه ضد هجوم الاستعمار ، وتأسيس الدعامات المادية
لتحرره التاجز في المستقبل .

القراءة الخ ، الخ - بدون أي اعتبار للطائفية والعائلية وما اشبه ،
 فتضمحل منا بفضل هذه الاعمال العصبية السامة ومخاوف الاقليات
 وشكوكها ، وتنهار دعائم الجدران التي تفصلنا عن بعضنا ، وتموت
 ذكرى الجبهات والحماقات الماضية . يموت هذا الداء الويل الذي
 ينهكنا - داء انزالنا عن بعضنا وقلة المخالطة بين مختلف أوساطنا .
 يموت بقوة تعاوننا على القيام بالامور المفيدة . لقد كنا حتى الآن
 نخطب بعضنا بعضاً عن المنابر ، فنذ الان يلزمنا نحن الشعب : العمال
 والفلاحين والشباب ، أن نشترك اشتراكاً فعلياً في أعمال يومية معينة
 على أساس الديمقراطية : اي المناقشة الحرة وإقناع بعضنا ، وتعلم
 أنفسنا بانفسنا ، ونقرر المسائل وفقاً لارادة الاكثية . فاذا عشنا حياة
 الديمقراطية في حلقاتنا المحدودة ، ومثلنا زمام ادارة مشاريعنا الخاصة
 الصغيرة بأسلوب ديمقراطي ، تكاثر عندئذ عدد الديمقراطيين المدربين
 وأصبحنا أقدر على إسناد الوظائف العامة إلى من هم ديمقراطيون
 بالفعل ، بادئين بمعلم ومختار الحي أو القرية ، فأعضاء المجالس البلدية ،
 فالنواب ، فارضين رغبتنا على جميع الجهاز الحكومي .

يجب أن يكون لنا الآن شعار واحد هو الديمقراطية سواء
 كنا من الذين يؤمنون بالوحدة السورية أو بالانفصال ، بالوحدة
 العربية أو باحتفاظ كل قطر عربي بشكل من كيان خاص . ان
 خصوصياتنا حول هذه الامور لجديرة بان تنحط الى خصوصيات حول
 الجغرافيا ، فضلاً عن ان الديمقراطية كفيلة بفض مشاكلنا . ان نشأة
 على قواعد ديمقراطية صحيحة ينشأها لبنان وسوريا ، وتؤمن لكل
 عضو من المجتمع السوري واللبناني حقوقاً وحرية ديمقراطية مطلقة
 متساوية ، وتوجد مستوى ثقافياً متناسباً متلائماً تكون هي

املا حاسماً في محو عدم الثقة من النفوس وبذر بذور الافة
وتكون بمثابة حجر الاساس لبناء مشترك بينيه البلدان بتعاون حر واخاء .
وكذلك ان تربية على قواعد ديمقراطية صحيحة نثرها الاقطار
العربية كلها ، وتضمن لكل فرد منها حقوقاً وحريات ديمقراطية
مطلقة متساوية ، وتقارب بين درجات تطورها تكون هي امتن
رابطة تربط هذه الاقطار وتسهل عليها تفاهماً واتحاداً ديمقراطياً في
المستقبل يتخذ أشد الاشكال موافقة للظروف التي يتحقق فيها .

٤ - واولئك المزعومون بالديكتاتورية ؟!

بقي علينا اولئك الشباب الذين غرهم صنم الديكتاتورية فأرادوا
عبادته واحراق البخور له . ان هؤلاء ليقعون في فئتين : فئة المغشوشين ،
وفئة مأجوري الديكتاتوريات الاستعمارية الاجنبية - فئة مأجوري
الفاشية الايطالية والنازية الالمانية الذين يريدون تسليمنا الى أوحش
ضرب من ضروب الاستعمار .

فاما الفئة الاولى فهم مغشوشون . لان كلمة ديكتاتورية قد
خلطت عليهم الامور خلطاً . يشاهد هؤلاء ما نتأذى منه من مساوئ
ومظالم فتاكة ، يشاهدون هذه الاحزاب الكثيرة القائمة على دعائم
ظائفية وعائلية وطمع شخصي تطاحن على مصالحها الانانية ، يشاهدون
صورة من الديمقراطية ويشاهدون قليلا من الديمقراطية نفسها ، قليلا
من الحكم طبقاً لما ترهبه اكثرية الشعب . فيقولون : حبذا لو تنهض قوة غالبة
تضرب بيد من حديد على هذه الاحزاب التي تقسمنا حول طوائف
وعائلات واشخاص ، ونتلاعب بنا ونهذب مصالحنا ظهرياً ! ويسمون هذه
القوة الغالبة التي تضرب بيد من حديد الديكتاتورية . وغايتهم الحقيقية

من وراء قيامها هو القضاء على العناصر المضرة بمصالح الشعب ،
وتوحيد صفوف الشعب وفسح الحربة لتحقيق ارادة الاكثرية . هذه
هي حقيقة الغاية في نفوسهم عندما يطلبون الديكتاتورية . انهم
يطلبون ديكتاتورية الشعب ضد اعداء مصالحهم ، ويطلبون انتصار
ارادة الشعب على ارادة اقلية تنصب أنانيتها فوق الجميع . فبكلمة
اخرى : هم يريدون الديمقراطية عندما ينطقون بافضة الديكتاتورية ،
لان الديمقراطية الحق لا تعني شيئاً إذا لم تعن ديكتاتورية الشعب
- أي نفوذ ارادة اكثريته وعلو مصالحته فوق كل مصلحة .

فاذا كنا نطمح الى الديمقراطية ونحن نقول الديكتاتورية ،
فلماذا لا نقول الديمقراطية رأساً ؟ . ان قولنا الديكتاتورية فقط —
لا ديكتاتورية الشعب — جدير ان يفسره ذوو الاغراض باننا نريد
ديكتاتورية فرد أو أفراد ، لا ديكتاتورية جماعات الشعب ، والفرق
شاسع جداً .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد تموت حرية البحث والاطلاع
وتنقطع الصلات بين الشعب وبين حقيقة ما يجري في حلقة حكامه
الضيقة المسيجة .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد يصبح النقد جريمة ، لأن
الديكتاتور يصير أشبه بإله ، ومن حوله أشبه بأفراخ آله .

في ديكتاتورية الفرد أو الافراد يتسع المجال لشتى المفاسد من
رشوة وظلم في جهاز الحكم حتى تبلغ أقصى حدّها ، لان كل شكل
من الرقابة الشعبية على حلقة الحكام الضيقة قد ازبل ، فيتمكن
الحكام من ارتكاب مفاستهم ، مع الحرص على تسمير بعضهم ، لانهم
شركاء في الجريمة ضد الشعب (وليس معنى انكشاف فضائح الرشوة في

اميركا وفرنسا مثلاً بأنها غير حاصلة في المانيا وايطاليا . ولكن سبيل ظهورها أمام الشعب في المانيا وايطاليا مسدود بعناية خاصة) .
في ديكتاتورية الفرد أو الافراد لا بد للشعب من أن يتدهور في هوة الفقر ويقع في حضن الجهل ، لان حكمه يسلبونه ثروته العامة لزيادة ثروة أقلية ، ولتدبير المجازر والحروب ، ويخشون منه ان يستنير وينقلب عليهم .

ففي ديكتاتورية الفرد أو الافراد تظل البلاد عرضة لخطر الفتن والمذابح خصوصاً عندما يموت الديكتاتور المتأله ، وينشب الخصام حول خلفه ، ويجد الاستياء المكبوت في نفوس الناس ، والانقسام الذي خلقه الديكتاتور في صفوف الشعب إبان حياته حتى استطاع الحكم ، بجالا للانفجار .

فهل نريد نحن شيئاً من ذلك ؟ هل نريد ديكتاتورية فاشستية على نمط ايطاليا والمانيا ، ديكتاتورية فرد وأفراد حوله في حلقة الحكم يستندون الى طبقة قابضة على خناق الامة برساميلها الاختكارية ؟ كلا !
هذا فضلاً عن ان الديكتاتورية الفاشستية بمعناها في المجتمع الغربي الصناعي في ايطاليا والمانيا — اي ديكتاتورية الرأسمال الضخم الاحتكاري — لا يمكن ان نتحقق عندنا . لان الصناعة والرأسمال ضعيفان عندنا جداً . والرسمال الضخم الاحتكاري لا وجود له البتة — إلا بشكل شركات احتكارية اجنبية هي ليست منا بل هي بلايا الاستعمار التي رمانا بها ، وأشواكه التي غرزها في قلبنا والتي نريد قلعها .

فمن الواضح اذن ان ديكتاتورية فاشستية تنبني على قاعدة صناعية رأسمالية منا أنفسنا لا يمكن ان نتحقق . كل ديكتاتورية فاشستية عندنا ، في أحوالنا الحاضرة ، يتحتم أن تكون عبدة لاستعمار

اجنبي ، لديكم تاتورية فاشستية اجنبية ، لا وظيفة لها إلا ان تسهر ،
ككباب الحراسة ، على حماية قيود عبوديتنا من ان نخطمها بأيدينا ،
وعلى حماية تلك المساوي ، والمظالم فيما التي ذكرناها سابقاً وعرفنا
كم هي حجر عثرة في طريق هدفنا المنشود .

د - نزار كوا الحائنين !

وهنا نقف وجهاً لوجه امام اولئك الذين يدعون الى ديكتاتورية
فردية عندنا على اساليب فاشستية ، وهم ليسوا من فئة المغشوشين بل
من يعرفون جيداً ماذا يبيّتون . صحيح ان هؤلاء قليلون جداً :
صحافيون كاسدون ومغرورون أنانيون وما أشبه ، ولكنهم على قلتهم
ورخصهم خطرون يجب ان نفتح عيون الامة عليهم فتحاً كبيراً ،
فانهم سلاح سام في أيدي الفاشستية الاستعمارية التي تبث الدعاية
لاستعمارها هنا وفي كل مكان .

هل نحن في شك من ان الفاشستية تبث الدعاية لاستعمارها ؟ لقد
مر زمان قال فيه موسوليني : « الفاشستية هي نتاج ايطالي خاص » ،
وقرر انها لا يمكن ان تعيش او تصدر الى خارج ايطاليا . ولكنه
ما لبث أن قال : « ان الفاشستية هي جيش هاجم . . . اننا نخارب
عالمنا . منحنطاً » وبالامس فقط ، اجتاحت ذلك الجيش الهاجم بلاد الحبشة
اجتياحاً دمويّاً . على ان السنيور ديتو غراندي كان أصرح من موسوليني
في هذا الباب ، حيث قال : « القنصل هو العنصر الضروري الاساسي
في توسع ايطاليا ، في الميدان السياسي والاقتصادي والثقافي . القنصل
هو الرائد في المدينة الجديدة التي أنشأها الفاشستية » . بكلمة
اخرى خالية من الطلاء واللف والدوران : القنصل عند الفاشستية هو

آلة الدعاية والتمهيد لفتوحها الاستعمارية . والذي يقدره الصحافي
الاميركي جورج سيدس ، ان ايطاليا تنفق ٣٠٠ مليون لير على دعايتها
الاستعمارية ، ومن يلقى نظرة على خريطة الامبراطورية الرومانية التي
رسمتها يد الفاشستية ، وعلفت منها الوف النسخ على الجدران أمام
أعين الاطفال لتبيح فيهم جنون الحرب والغزو ، يجد الاقطار العربية
جميعها مدرجة في الخريطة وموضوعة على لائحة مطامع الفاشستية .

والنازية الالمانية فرس رهان مع الفاشستية الايطالية في هذا
المضمار . وجريدة (فولكشير بوبلخر) التي يحررها الفيلسوف الزائف
روزنبرغ ، بوق الدعاية النازية الاستعمارية تعز علناً في أحد اعدادها
(٢٧ ايلول ١٩٣٤) بانتشار النازية في البلدان العربية ، وبتأليف
فرقة قصص خضراء فاشستية الخ . . .

أجل ان الفاشستية لترمقنا بعيون يقدر منها شرر شهوة الافتراس .
هي تطمع فينا ، في بسط استعمارها الذي هو أوحش اشكال الاستعمار
علينا . ولكننا نبغض الاستعمار ، ونريد الاستقلال والسيطرة على
مقدراتنا ومواقفنا بأنفسنا . ونحن جنود الديمقراطية وحقوق وحرية
الانسان في اوطاننا ، كما نحن جنودها في خارج اوطاننا ايضاً — في
الدنيا بأسرها لان مصيرنا لن ينعزل عن مصير غيرنا . وما أصدق
العربي الذي قال : « انا ادافع عن دمشق في خنادق مدريد ! » وإياؤنا
واعترازنا القومي لا يعنينا مطلقاً اننا لسنا مستعدين للتعاون على
مشاكلنا ومشاكل العالم اجمع مع الامم الديمقراطية الحقبة — اي :
الامم التي تعترف لنا بحريتنا وتعاملنا على أساس الانصاف ، ولا يحول
في ذهنها اننا من طينة أحقر من طينتها خلقنا لكي نطأ عليها الرووس .

تذييل للمؤلف

هذا الكتاب مقصود للقارئ العادي ، لمن نال قسطاً ما من الثقافة . وليس هو مقصوداً للقارئ المتقضي . ولذلك فيظهر في هذا الكتاب الحرص على شيء من البساطة والسهولة ، ولو ان في ذلك تضحية للتعقيد والتوسع . واذا استطاع هذا الكتاب ان يكون للقارئ نقطة ابتداء في التعقيد والتوسع وحافزاً الى نقصي القضايا المعقدة التي يعالجها فان المؤلف ليعد نفسه موفقاً الى ما يبتغيه .

ماذا يعالج هذا الكتاب ؟

بكلمة عامة — انه يعالج تطور التاريخ . ويميل المؤلف الى ان يحمل تطور التاريخ في عدد من الانقلابات والثورات داخلية في بعضها متشابكة طبعاً ، جرت في حلقات ومرت في مراحل وتحققت على درجات ، وكان من اشكلها السلمي والعنفي والمشعور به وغير المشعور به ، وهكذا . ولكن تيسيراً للبحث يرى المؤلف ان يجعل عدد هذه الانقلابات او الثورات اربعاً :

اولاً — النزاع بين تفسيرين لصلة الانسان بالكون ووجهتين من النظر مختلفتين كل منهما تريد الاتفراد بالسيطرة على عقل الانسان وعواطفه وسلوكه — نزاع العلم والدين كما تمثله هيئة رسمية (كنيسة او مشيخة الخ) . وتحت هذا النزاع ينطوي مثلاً حركة الاصلاح ضد البابوية واضطهاد الكنيسة للعلماء ومن كانت تدمغهم بدمغة الهرطقة .

وتسلط عليهم دواوين تفتيشها • ولا يمكن ان يقال ان هذا نزاع قد انتهى حتى اليوم • وان كان القرن الثامن عشر خصوصاً • وهو ما نسميه بعصر العقل والاستنارة والفكر الحر • قد رجح الكفة في مصلحة العلم ترجيحاً كبيراً •

ثانياً — الانتقال الاقتصادي من القرون الوسطى ونظمها وطرق انتقالها الى العصور الحديثة • ويدخل في هذا الانتقال تحطم الاقطاعية واكتشافات وفتوحات العلم وقيام الثورة الصناعية وانقضاء عزلة العالم عن بعضه ونشوء الرأسمالية وارتكاز المجتمع الحديث على قواعدها وتطبيقها لمعظم الدنيا بسياسها وتغلغها الاستعماري •

ثالثاً — الصراع السياسي حول من يستلم ازمة الحكم — الملك وجوقة حوله من اشراف واحبار ام جماهير الشعب (وعلى رأسها طبعا الطبقة الوسطى المتمولة التي عززت سيادتها الثورة الصناعية) وهذا هو الصراع المشهور بين الاوتوقراطية والديموقراطية • وألمع حوادثه وأبعدها صدى وتأثيراً الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ م •

رابعاً — تطور المجتمع المرتكز على قواعد الرأسمالية الى حد عظمت فيه أزماته وتناقضاته — خصوصاً التناقض بين البورجوازية الاحتكارية والبروليتاريا وبين دول الاستعمار والمستعمرات — حتى اصبح لا بد من تعديل قواعد المجتمع الحاضر وبناء مجتمع جديد على اسس جديدة • هذا التيار تاتي معه الثورة الروسية سنة ١٩١٧ وانشاء المجتمع الاشتراكي هناك • وتأتي معه ثورات المستعمرات وحماية الرأسمالية لنفسها بارهابات الحكم الفاشستي وما نشاهده من اعتداءاتها على الديموقراطية وقيامها بحروب النهب والاجتياح •

ذلك ما يحاول ان يعرضه هذا الكتاب في صفحاته جاريا جريا

- (٢) الديمقراطية البورجوازية تهمل حق الانسان الاقتصادي
 (٣) البورجوازية ترمي اولاً الى تنصيب ديكتاتوريتها الطبقية
 المطلقة (٤) نظام الانتاج الرأسمالي نظام طلب للربح بقطع النظر
 عن سعادة المجتمع (٥) البروليتاريا الصناعية الحديثة ودورها في
 التاريخ (٦) البروليتاريا في نضالها نصيرة الشعوب المستعمرة
 وحاملة لواء أعظم ديمقراطية (٧) الديمقراطية البروليتارية في
 سدس الكرة الارضية - ضمانها لاوسع حقوق عرفها الانسان.

* الطريقان امام حقوق الانسان

الحياة في طريق الاشتراكية ، الموت في طريق الفاشستية

- (١) حقوق الانسان في خطر (٢) البورجوازية تريد تنصيب
 ديكتاتوريتها العالمية (٣) الفاشستية : قناعها المزرعش ووجهها
 الحقيقي (٤) جرائم الفاشستية : إبادة حقوق الانسان وبعث المهجمية .
 كتاب لهنري باريس (٥) الشعب المحتق . كل شيء لحروب
 الغزو الاستعماري (٦) المرأة آلة لتوليد الرجال للحرب .

* نحن ومقوق الانسان

الديموقراطية شعارنا

- (١) الموقف العالمي في خطوط عريضة (٢) البورجوازية تعيث
 فساداً في مستعمراتها ولا تعرف فيها الديمقراطية . (٣) علاجنا
 الديمقراطية الصحيحة (٤) واولئك المخدوعون بالديكتاتورية ؟ !
 (٥) تداركوا الخائنين !

* تنزيل للمؤلف

يطلب هذا الكتاب من:
ادارة مجلة الطليعة : دمشق — ص ٠ ب ٣٤١
ومن المكاتب العربية

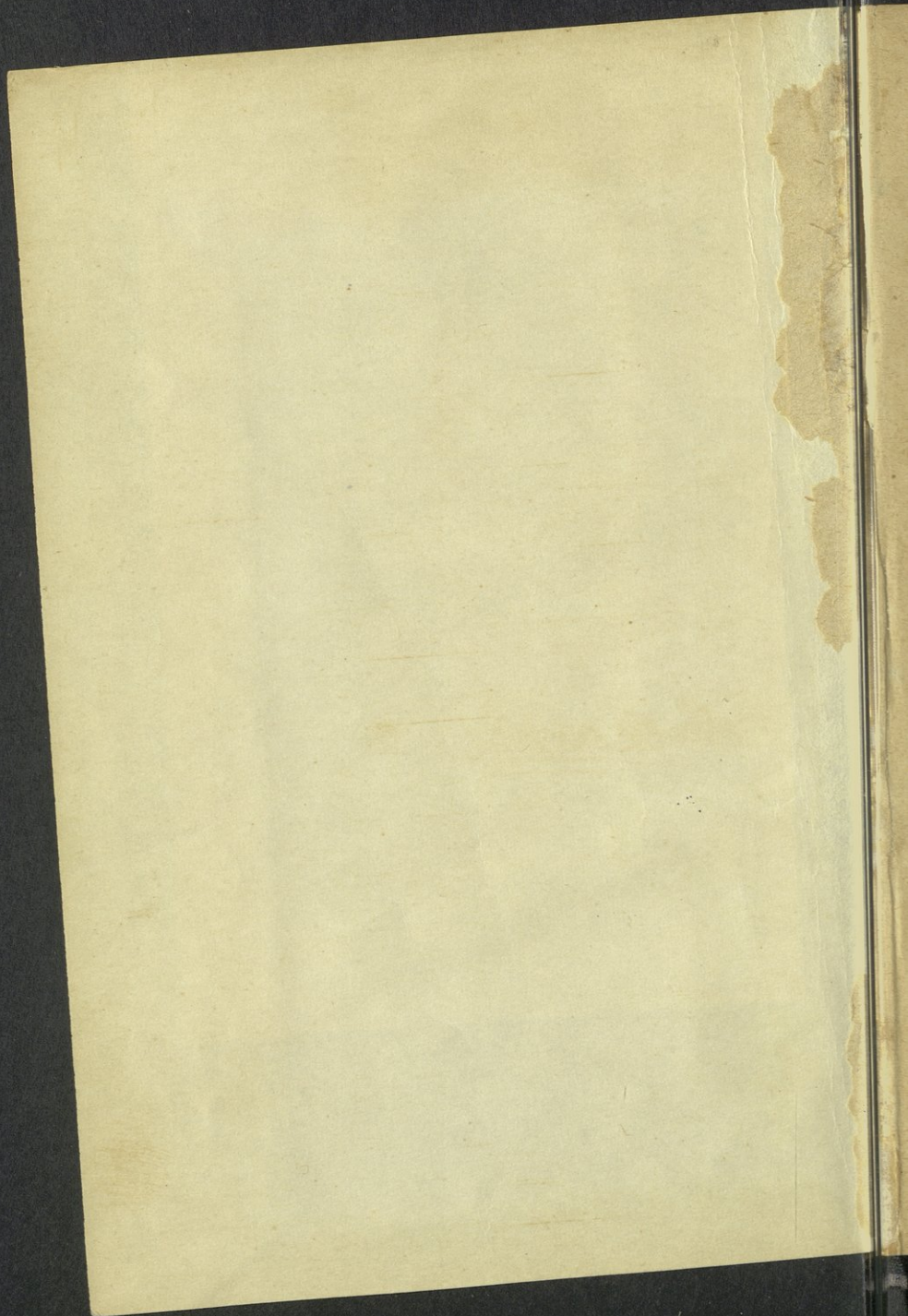
ثمانه في سوريا ولبنان ٥٠ قرشاً
وفي العراق ١٠٠ فلس وفي مصر وفلسطين ١٠٠ مل

تصويبات

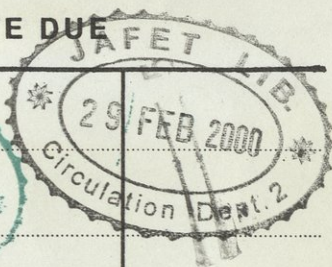
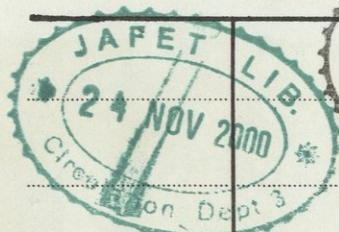
صفحة	سطر	خطاً	صواب
٩	٣ (من العنوان)	سبع	سبعة
١٠	١٣	سبع	سبعة
١٧	١٣	ضمنوه	ضمنوه
٢١	١	الذي	(تحذف)
٣٣	٦	الرواقين	الستوبيك (Stoics)
٣٥	١٥	الخدمة	الحربة
٣٦	١	الستويج	الستويخ
٣٩	٤	ليكرزفتون	ليكرزفتون
٤٥	الحاشية	Etat	E ats
٤٧	٣	في	(تحذف)
٤٨	١٩	يلقحون	يلقمون
٤٩	١	توجهتها	توجهتها
٥٦	١٢	بقصد	بقصر
٥٦	١٤	بابوف	برناف
٥٨	١٢	ارى الان	الان أرى
٦٥	١١	الفوضى	الغوص
٧٢	١٠	على	'من
٩٣	١٠	نباع	نباغ
٩٤	٥	باودينثال	بأ درينثال

<u>صواب</u>	<u>خطأ</u>	<u>سطر</u>	<u>صفحة</u>
هر شفييلد	هر شتييلد	٥	١٠٥
المدرسين	٣ (من الحاشية) المدرسين		«
بشجاعة	١٥ (من الحاشية) بالشجاعة		«
هر شفييلد	هر شفييلر	١٠	١٠٦
«	«	١٢	«
توماس مان	توماس	١	١٠٧
(تحدف)	و	٨	١١٥
تستير	تسيير	١٩	١١٧
Gallimard	Galliw-ard	٩	١١٩
ديتو	دبتو	١٩	١٢٩
لتطور	لتتطور	٢	١٣٣

Gallimard



DATE DUE

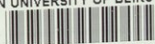


323.4:K45hA:c.1

خوري، رفيف

حقوق الانسان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01015032

American University of Beirut



323.4

K45hA

General Library

